سيدة القمر

وفاء شهاب الدين

سيده القمر / رواية
وفاء شهاب الدين
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١٠ ش عبد الهادي الطحان ، المرج
القاهرة
موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
تدقيق لغوي :
حسام مصطفى إبراهيم
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٤٠٥
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٢١- ٦

سيدة القمر

رواية

وفاء شهاب الدين

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

بقلب مملكة يعتلي عرشها آل سعود، موج أسير
تنكسر إرادته على شواطئ عادات وتقاليد آل مونتاجيو
وآل كابوليت، موج يتمنى تحقيق حلمه المستحيل في
الانتماء إلى من يحب.

لهذا الموج.. أهدي هذا العمل المتواضع، كصرخة بوجه
تلك التقاليد، وتذكار أخوة وصداقة لها بقلبي الكثير.

إلى

من تمنح النور بهجته ومن تمنح الشمس سطوتها

إلى "نوره"

وفاء



أكره البدايات..ولكن تدفعني خيبات كثيرة لتذكّر بداياتي التي أجدها الآن أروع ما عشت، وأفضل ما سأمرّ به، رغم ما يحيط بي من ألق، سئمت الألق كفراشة تدري مسبقًا ما يفعله بها الضوء، من الصعب على أي إنسان شهير أن يحكي عن أدق تفاصيل حياته الشخصية، ولكنني أمتلك الشجاعة لأن أعترف بكل أخطائي وهفواتي، ليس لأنني شخص يهوى إثارة الضجة، ولكن لأنني أحتاج لتذكر تفاصيل صنّفتها ذاكرتي كملفات انتهت فترة صلاحيتها.

بدأت حياتي عندما سيطر على والدتي الظن أن الزواج من ثري هو بداية للحياة السعيدة، ودفعتها روح المغامرة لترك عملها كممرضة في أحد المستشفيات، لتتزوج من أبي الشاب الخليجي الثري، وتنتقل للعيش معه في السعودية.

كانت تتصور أن جملة "وعاشوا في تبات ونبات وخلّفوا صبيان وبنات" دائما ما تكون مقترنة بالزوج الوسيم، الذي يحملها على حصانه الأبيض، ويطير بها إلى مملكة الحب، وإلى القفص الذهبي الذي اكتشفتْ فيما بعد أنه قفص من صفيح!

لم تتحمل أمي وجودها في منزل واحد مع ثلاث (ضرائر)، فلم تجد خيرًا من اتباع إستراتيجية تثبيت قدميها بالإنجاب، فأنجبتني، ثم أنجبت نهلة شقيقتي الصغرى، وخلال عملية عصيان مدني قادتها والدتي ضد والدي، حصلت على الطلاق على طبق من ذهب، وعادت إلى مصر حاملة أختي الصغرى التي لم تكن تتجاوز سنها العشرة أشهر!

كانت نكبة حياتها الأولى، كما كانت تصفها أمي، فعندما تحصل فتاة جميلة مثلها في أوائل العشرينيات على حريتها - هكذا كانت تطلق أمي على كلمة الطلاق، وكانت تفضّل لقب حرّة بدلاً من مطلقة- بهذه الطريقة، تتحول الحرية التي يتمناها المناضلون ويضيعون حياتهم من أجلها، إلى نكبة كبيرة، فسيدة بلا عمل ولا زوج ولا مأوى، معها طفلان يقفان عقبة أمام زواج آخر، نكبة بدون مبالغة.

كانت أمي عاشقة متيّمة بأبي، عندما تكون رائقة المزاج، نسمعها تدبّج قصائد الشعر في محاسنه، وكم كان كريمًا معها، إذ لم يقبل أن تضع جنبها على فراشه، إلا بعدما تقبل هدية من الذهب تقدر بآلاف الريالات.

كان يبتسم عندما يتأمل تفاصيل وجهها الألق، ويُسمعها أرقَّ عبارات الغزل الصريح والعفيف، ولم يبخل عليها بأي شيء تشتهيه، كانت الليلة التي يقضيها معها، ترضيها لسنة كاملة، ونِعم الرجل كان.

كان يُشعرها أنها الوحيدة التي تمتلك قلبه ومشاعره، وما إن صدّقته حتى اغترّت، والغرور هو تابوت الحب، وثقت من نفسها ومن قدرتها على التأثير عليه وعلى التحكم بمشاعره، وما إن فعلت، حتى بدأت تحيك المؤامرات ضدّ "زينة" زوجة أبي السعودية التي تشاركها في قلبه، فألّبت ضدها زوجتيه "سبيكة" الكويتية و"هاجر" اليمنية، تمهيدًا للتخلص منهما بعد الانتهاء من زينة.

وأعلنت ثلاثتهن العصيان، فما كان من أبي إلا أن حاول الإصلاح بينهن، وانفرد بكل واحدة على حدة (كانت سياسة فرِّق تَسُد التي كان يتبعها والدي في مثل هذه المواقف جيدة) حتى علم أن أمي سبب ما حدث.

طلب منها مصالحة زينة، وعقد سلام معها، إلا أنها رفضت، واتّبعت سياستها الأثيرة، سياسة لي الذراع، وقررت العودة إلى مصر، وحاول أبي أن يثنيها عن قرارها، إلا أنها تشبثت به، لعلّه يدرك قيمتها، ويطلق الثلاثة ويعود إليها صاغرًا.

دافع والدي عن رجولته التي دائمًا ما يعتز بها، ورمى عليها يمين الطلاق الذي اعترف لي -فيما بعد- أنه كان أسوأ قرار اتخذه في حياته!

ولشهامته حرّر لها شيكًا بمبلغ كبير، يزيد عدة أضعاف عن صداقها، لتستطيع شراء شقة، وتتمكّن من تربيتنا تربية صالحة، فما كان منها إلا أن مزّقت الشيك، وقذفت به في وجهه، وعادت بنا تتقاذفنا بحار البؤس والفقر!

"مصري من يولد لأب مصري"، كم عذّبتنا هذه الجملة، فأنا وشقيقتي أمام القانون أجانب، ليس لنا حق الإقامة في مصر، ولا في مجانية التعليم، ولا في الالتحاق بالوظائف الحكومية، ليس لنا أي حق حتى في التنفس من هواء مصر؛ لأننا كما ينصّ القانون "أجانب"، لابد من تجديد الإقامة سنويًا، ودفع رسوم المدارس الخاصة بالعملة الصعبة، حوّلت هذه الجملة حياتنا إلى جحيم، فأمي منذ السادسة صباحاً إلى العاشرة مساءً في العمل، تعود لتعدّ لنا طعامنا وتستريح قليلاً، لتبدأ الدوران في ساقية العمل من جديد.

كانت علاقتي بوالدي لا تتعدى زيارات للمملكة محددة في العطلة الصيفية، كنت ألتقي فيها بإخواني الذين يستوطنون عدة أقطار عربية، هي بالأساس بلدان أمهاتهم، واللائي مارس أبي هوايته في الإنجاب منهن، ثم استبدالهن بأخريات، وبعد انتهاء الزيارة أعود إلى مصر محملاً بالهدايا التي كانت توبخني أمي على قبولها.

صممت والدتي على دخولي كلية الطب، و لم أكن أرغب في دخولها لسببين وربما ثلاثة، أولها أنها كلية عملية تحتاج لأموال كثيرة، لا نستطيع تدبيرها في الوقت الحالي، والسبب الثاني أنني كنت أنفر من مناظر الدماء، وينتفض قلبي عندما أعلم أن الإنسان عندما يموت يتحوّل إلى جثة، والسبب الثالث -وهو الأهم- أنني أهوى الموسيقى والغناء وأود دراسة الموسيقى.

ولكن والدتي كانت أسبابها أقوى، لذلك التحقت بكلية الطب، لأحقق حلم والدتي في حمل لقب أم الدكتور، ولأكون الطبيب الوحيد بين إخوتي، لتثبت لأبي أنها نجحت في تربيتنا بدون مساعدته.

عندما التحقت بكلية الطب، شعرت أن المسألة تحتاج جرأة وقلبًا ميتًا، في أول درس لعلم التشريح كنت أرتجف ولا أدري أين ذهبت دمائي، شعرت بجسدي كله متجمدًا كالجثة الممددة أمامي، وقاومت شعورا قويا بالغثيان، وفجأة شعرت بدخان أبيض يلفني، وعلمت بعدها أنني قد أُغشي عليّ، وما إن أفقت حتى عدت إلى منزلي، وتمددت في فراشي أحاول أن أستغرق في النوم، وأنسى ما حدث، إلى أن شاهدت أطيافًا سوداء اكتشفت على الفور أنها أشباح تتراقص أمامي وتصرخ بأصوات مرعبة، فأدركت أن علاقتي بكلية الطب ستتسبب في هلاكي!

ما إن عادت والدتي من المستشفى، حتى وجدتني أهذي من الحُمّى، وبعد أن أفقت قليلاً، حكيت لها ما حدث، فلربما تتغير وجهة نظرها أو تقل حدة غرامها بكلية الطب، إلا أنها نعتتني بالفاشل والخائب، وأخذت تولول كأنما مت، فقررت أن أتحامل على نفسي حتى أمحو عن نفسي صفة الفاشل "اللي مش نافع".

كانت الشهور الأولى لي في الكلية جحيمًا لا يطاق، ولكن ما خفّف عني قليلاً، أصدقائي الذين توطدت علاقتي بهم، وأهمهم غسان وهو لبناني يدرس في مصر "كم أعشق شعب لبنان"!

مرّت عدّة سنوات، تغيّرت فيها ملامح أمي تمامًا، تحول الجمال الباهر إلى شيء آخر، لا أدري ما سبب ذلك التغيّر، لكنها كانت مرهقة دائمًا وتعبة، فقررت مشاركتها في تحمل المسئولية بعد زيادة أعبائنا المادية، حاولت إيجاد عمل آخر بجانب كتابة الوثائق على الكمبيوتر وطباعتها، إلا أنني فشلت، إلى أن وجد لي "ملك الروشنة" -وهو زميل لي- عملا لي في ملهى والده الليلي، ثرت لمجرد الفكرة واتهمته بالفساد ورغبته في إفسادي، إلا أنه سألني لم لا أغني ساعتين كل ليلة مقابل راحة أمي وإسعادها؟ ساعتان فقط يمكن أن تُغيّرا حياة البؤس والتقشف التي نتبعها منذ نعومة أظفارنا، ولكني خشيت من

شيء واحد، هو أمي، فهي لن تتحمل صدمة أن يعمل ابنها "الدكتور" مطربا في ملهى ليلي، وهي التي كانت تحتقر أحد جيراننا لأنه يسهر في الكباريهات ويعاقر الخمر!

وجود هذا الجار صعّب المسألة، ولكن حلها جاء من السماء، فقد مرضت أمي مرضًا شديدًا لدرجة أنه لم يعد لديها القدرة على العمل، فاقترحت الحل الذي أبكاها، ولكنها لم تستطع الرفض أمام إصراري، خصوصاً أن نهلة أختي اجتهد "خراط البنات" في خرطها، فأصبحت مثل ثمرة ناضجة، يتهافت الجميع على اقتطافها.

التقيت بصاحب الملهى الليلي، وأعجب بصوتي وأدائي، وعيّنني على الفور بتشجيع من الراقصة "شاهندا" التي كانت تتفحصني كأنما لم تر رجلاً من قبل!

حياة الليل زاخرة بالمواقف، ترى كل شيء على حقيقته، أو ربما توهمت ذلك وقتها،فتيات بارعات الجمال يسمحن لأي حيوان أن يتلمّسهن..ضحكات..أغان.. غزل..رغبات..خمر.. نساء الليلة الواحدة، كل ذلك كان متوافراً، ولكنني كنت أنهي وصلتي الغنائية وأسابق الطريق لأعود لأمي كما تركتها.

و لم تفلح كل محاولات شاهندا في استدراجي، كانت تحاول استثارتي بكل الطرق، بداية من "الهي هي هيئ" ونهاية بلمساتها النارية، كانت تتعمد أن تلمس وجهي بأناملها المعطرة بحجة أن

هناك شيئا ما عالقا بخدي (إلى الآن لا أعرف ما هو الشيء الخفي الذي كان يعلق بخدي وشفتي!)

تجرأت مرة وقبّلتني، فشعرت بالقرف لتلك الطريقة الرخيصة، أنا لا أحب المرأة التي تضع أشياء غريبة في صدرها ليبدو ممتلئًا، ولا أحب الشفة المحقونة بالكولاجين، وأشجّع الأنف الطبيعية مهما كانت بشاعتها، إنني عكس كل الرجال، أكره جسد المرأة العاري، عندما تفرط المرأة وتظهر جزءا من جسدها، فإنها تسقط كل جاذبية لها احتفظت بها عيناي!

كانت شاهندا نتيجة طبيعية لأكثر من ثلاثين عملية تجميل، جعلتها تبدو دمية لا حياة فيها، وربما ندمتُ فيما بعد لطريقة معاملتي الجافة لها، فأنا شاب طبيعي، أحيانًا ما تتملكني رغبة قوية في مجاراتها، إلا أنني أكبح جماح انفعالاتي، فأنهي وصلتي وأجلب العشاء لأمي وشقيقتي وأعود إلى البيت لأستذكر دروسي، ثم أستلقي في فراشي لأغرق في بحار النوم المتلاطمة التي تجود علي أحيانا بحلم يبهجني، ويجعلني أكمل حياتي بتفاؤل.

كم استرحت عندما وصلت شاهندا إلى استنتاجها الجديد، فقد اعتبرتني إنساناً غير طبيعي، لا تهزه زلازل النساء، وقالت بالحرف الواحد "باين إنك ملكش في اللون"، لم أشعر بالإهانة،

فابتعادها عني كان أمنيتي، لقد سعدت، ربما لأنها ستكف عن محاولاتها لمضايقتي.

نهلة أختي، أو شبيهة "إليزابيث تيلور" كما كان يحلو لي مناداتها، كانت فتاة رائعة الجمال، ذات عينين زرقاوين (لا أدري من أين أتت بهما!) وقوام ممشوق، دخلت كلية الفنون الجميلة لحبها للفن، فقد كانت ذات موهبة جديرة بالاحترام، وفي السنة الثالثة تقدّم لها أحد شباب الحي للزواج منها، لا أدري لِمَ كرهت هذا الشاب، على الرغم من سعادة أمي به، فقد عمل فترة بالخليج، وأتى محملاً بأفخر الثياب والأجهزة الكهربائية، ولأول مرة أحتدّ على أمي، وأطالبها برفض هذا العريس"اللُقطة"، ورفضت أمي طلبي في إصرار قائلة إنه قادر على إطعامها، حاولت تأليب نهلة ضدها، إلا أنها انضمت لأمها في إصرار، فقد رأت فيه خلاصها من حياة التقشف التي تعيشها، وما شجعها على قبوله أن زواجها منه سيمنحها الجنسية المصرية.

وتّمت الخطبة رغماً عني كالعادة، فأي قرار مصيري يتعلّق بنا، كان لابد من موافقة اثنين عليه على الأقل، وكانت أمي ونهلة تمثلان الاثنين دائمًا وأنا الواحد، كنت أشعر بشعور الأقلية المغلوبة على أمرها، لم أستطع أبدًا ممارسة سلطتي، لكوني الذكر الأوحد ورجل البيت!

كان الصمت هو وسيلتي الوحيدة للتعبير عن غضبي، فقد علمتني والدتي الهدوء، الهدوء الشديد، ليس لأنها كانت هادئة، بل لأنها عند غضبها تتحول لإنسانة شريرة، تصرخ وتتحول كل ملامحها الأنثوية الرائعة إلى ملامح شرسة غريبة، فقررت – فيما بيني وبين نفسي– ألا أشوّه ملامحي بالغضب مهما حدث، وحاولت التعوّد والتكيف على كبت كل المشاعر بداخلي، فابتسامة هادئة كفيلة بامتصاص غضب مَن أمامي، أو هكذا أعتقد.

انتابتني رغبة شديدة في عيش مغامرة حب، ولم يكن أمامي سوى حب فتاة مثلي من طبقة المطحونين، كانت جميلة، أنثى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، طبيعية الملامح، تعرفت بها عندما غنيت في حفلة أقامتها الجامعة.

كانت على علم أنني أعمل في ملهى ليلي، ولم تنفر مني، فهي تقدّر قيمة العمل –كم أحب المرأة المتفهّمة– كنا نلتقي سوياً ونخرج معًا، في إحدى ليالي الصيف جاءتني في العمل وقد كانت مفاجأة مروعة بالنسبة لي، فدخول فتاة مهذبة مثل هذه الأماكن، يحمل طعم الخطر، أنهيت وصلتي بسرعة، وأخذتها من يدها لأوصلها إلى المنزل، وفي الطريق الذي قطعناه سيرًا على الأقدام، غمرتني بمشاعرها الدافئة، أشعرتني أنها في حاجة إليّ، وكنت في أمسّ الحاجة إليها.

كانت ليلة صيفية مقمرة، لم أجد ليلة بروعتها، ولا أدري ما حدث، كل ما أتذكره أنه عندما وصلنا لمكان إقامتها، دعتني للدخول، فرفضت لعلمي أنها تقيم بمفردها؛ لأنها مغتربة، وكل رفيقاتها عُدن إلى أسرهن، ولكني أمام إلحاحها لم أجد بُدًّا من شرب الشاي معها، تحادثنا طويلاً وكثيراً لتأجيل اللحظة المحتومة، مواجهة كانت صعبة، والانتقال إليها كان أصعب بالنسبة لي الأقل، صعب جدًا التجرد من المشاعر والأحاسيس والتحوّل إلى حيوان في نظر الآخر.

وفّرت هي عليَّ مشقة البدء وقبّلتني، ولا أعلم السر في عدم إحساسي بالقلق، بل رنوت إليها كأنها أجمل شيء في عالمي بأسره، ولم أستطع مقاومة رغبتي الملحة في امتلاكها، فأحطتها بذراعي، وصاحبتها إلى عالم اللاوعي.

للمرة الأولى أعترف أن في العالم كائنًا آخر اسمه المرأة، كائن ممتع شهي، ولكن ما أثار شكوكي، هو عدم ترددها، وثقتها الغريبة بنفسها، علاقتنا لم تكن كاملة، ولكنها جعلتني أشعر كأنني في عالم آخر، تعاملت معي بتمرّس غريب، كيف يمكن لفتاة بريئة أن تفعل ما فعلت؟ ربما التأثير الطاغي لوسامتي وإحساسها بي، دفعها إلى إعطائي ما أرغب بهذه الدرجة من الكمال وربما يكون شيئًا آخر.. تمنيت لو لم أفكر به.

مرّت عدة أيام بدون أن نلتقي، ولكنني لم أكن أفكر بشيء في الدنيا إلا بها، نعم، فتجربة مثيرة كهذه تعلق في الذاكرة، ومن الصعب محوها، كنت أسترجع ما حدث في خيالي، لا أدري لم يجعل الخيال هذا الحدث جميلاً خرافياً؟ كنت في نشوة أرفض أن أفيق منها، إلى أن زارني غسان، وتحدث معي بشأنها، وأخبرني بما صدم مشاعري وحطم كبريائي، فقد أخبرني أن "داليا "ليست إلا فتاة رخيصة، تبيع المتعة لمن يريدها من العطشى، لم أصدق، فتلك الرائعة لا يمكن أن تكون هكذا أبدًا!

لكي يبرهن لي، أخذني إلى شادي"ملك الروشنة"، وفتح غسان الموضوع أمامه، فما كان منه إلا أن قال موجهاً كلامه لي:

- إيه دة؟ هي علقتك؟

وقال كلمات أخرى يعفّ قلمي عن كتابتها، أخبرني أنها تهب جسدها لكل عابر سبيل ما دام يستطيع دفع"الفيزيتا"، ويضمن لها أنه لن يطلب أكثر مما ستعطيه فهي ذات مبدأ!

عندما يحب المرء، تتخدّر كل أحاسيسه، ويرى من يحب كأنه الإنسان الكامل، كان قلبي يكذّب كل ما يقال، ولكن عقلي كان واعيًا، فأنا لم أحك لغسان، وإنما هي من أخبرت

أحد الأصدقاء، فنقل الخبر لغسان، ولم يتحمل غسان الخبر، فأتاني ناصحًا.

على الرغم من كل تأكيدات شادي، إلا أنني أظهرت عدم تصديقه، فلم يجد بُدًا من رفع سماعة التليفون وتشغيل "الإسبيكر" لكي أسمع المحادثة، ويا ليتني ما سمعت كلماها القبيحة السوقية التي محت ذكرى تلك الليلة من قلبي للأبد! في النهاية أعطته الموعد، وما إن أغلق التليفون حتى طلب مني الاتصال بها من الموبايل الخاص بغسان، لأخبرها أنني أرغب في رؤيتها في نفس الموعد، وفعلت، ورحبت جداً، وما إن أغلقت الموبايل، حتى دق جرس تليفون صديقي، وكانت هي تتصل لكي تؤجل الموعد لحدوث ظروف طارئة.

وفي الموعد المحدد ذهبت، وكنت قد اقترضت مبلغا من المال من أحد أصدقائي المقرّبين، استقبلتني بابتسامة كادت تفلت أعصابي التي سيطرت عليها بصعوبة، وعلى طريقة فيلم "مولان روج"، قذفت بالمال في وجهها، فقبلته بلا تردد، وعصفت الحسرة بقلبي، فأول من أحببت تريدني لأجل المال، المال فقط، فلا وسامتي ولا جاذبيتي هما ضالتها، فقط المال، ولأنني فقير، فلن أستطع تلبية احتياجاها، لقد اختارت الشخص الخطأ لتعبث معه! فمع أنني سعودي الأب، إلا أنني فقير.

خرجت من عندها وأنا آسف، ليس عليها ولكن على المبلغ الذي اقترضته ولن أستطيع سداده،

وفي المساء ذهبت للعمل، وبعد أن انتهيت، وفي أثناء استعدادي للهرب من براثن شاهندا، فوجئت بأحد الأشخاص يطلب لقائي، كان رجلاً وسيماً مهابًا، تبدو عليه آثار النعمة، أخبرني أنه يريدني للعمل كمطرب في أحد فنادق القاهرة الكبرى.

أذهلني العرض، ولكنني طلبت مهلة للتفكير؛ لأن هذا العرض لن يفي بالاحتياجات المادية لأسرتي، وخصوصاً أنني أعمل على تجهيز نهلة أختي، لكنه كان كريمًا معي حين قال إن الوصلة ستكون ساعة واحدة، ويمكنني الاحتفاظ بعملي الحالي، وجددت طلبي للمهلة، حتى لا أبدو متلهفًا، ولتكن أسبوعًا مثلاً.

كان هذا الأسبوع أصعب ما مرّ عليّ من أيام، فقد كنت أتذكر الوهم الذي عشت فيه، وكنت أتألم في صمت، فمن الصعب اقتلاع ذكرى مُخجلة كهذه بسهولة، ولاحظت والدتي حالتي، وكالعادة أرسلت لي نهلة التي استدرجتني ببراعة، فحكيت لها تلخيصا لما حدث، وكالعادة أيضًا نقلت نهلة لأمي الحوار بالكامل، وقامت الدنيا ولم تقعد، تحول منزلنا الصغير الهادئ إلى سرادق عزاء.. بكاء... عويل... ندب (لأمي طريقة جيدة في ندب حظها العاثر الذي جعلها تنجب فتى عديم التربية

مثلي!) فالحب من وجهة نظرها جريمة لا تغتفر، فأنا لا أملك أن أحب، الفقراء عمومًا لا ينبغي أن يشعروا مثل باقي الناس بالحب، وعلى الرغم من علمها بانتهاء هذه العلاقة، إلا أنها استمرت في معايرتي في الذهاب والجيئة، بأنني شخص غير جدير بالاحترام، وأن مستقبلي سينتهي بفشلي في الزواج أيضاً مثل أبي.. فقد كانت تتذكر مساوئ أبي عندما تتكدر لأي سبب كان، وكما تدبّج القصائد في مدحه، كانت تدبّجها كذلك في ذمّه، فقد كان مسرفاً، زير نساء، لا يقدّر النعمة، فاشلا في الزواج، حيث طلّق أكثر من ثلث مطلقات العالم العربي (كانت دائما لا تحتسب الزيجات التي نجحت واستمرت إلى الآن)، كما أنه لا يفهم في فضليات النساء، وذوقه في اختيار زوجاته ينم عن ذائقة قبيحة!

لم أجد بُدّاً من ترك البيت، والحلول ضيفاً على غسان، إلى أن تنتهي هذه القضية التي لا أعلم كيف انفرجت شفتاي، ومنحتا للساني حرية إيذائي!

بعد عدة أيام هدأت أمي، وجاءتني، بعد أن وبّختني أمام غسان طبعًا، الذي استحق من التوبيخ جانبا كبيرا، لمجرد أنه صديقي المقرّب، سحبتني إلى البيت كما تسحب الماشية.

استلمت العمل في الفندق، وراق لي الجمهور المتحضّر، وعدم وجود شاهندا، وجمعت بين العملين، لأستطيع الوفاء بجميع احتياجات نهلة.

كان "عريس الغفلة" -كما كان يطيب لي أن أغتابه- قد حدّد موعد الزفاف من طرف واحد، وكنت في موقف صعب، واقترب موعد الزفاف، وبصعوبة استطعت تأمين كل ما تحتاجه نهلة، كنت أكرهه، ولكنني لا أتجرأ على النطق، حتى لا أثير غضب حبيبتي نهلة.

حدث ما كنت أتوقعه، "فعريس الغفلة" دائمًا ما كان يعايرها بأنها تحتاج إليه من أجل الجنسية، وأنها فقيرة، وأن والدتها تعمل ممرضة، وشقيقها -أنا- يعمل بكباريه، وإذا كان رب البيت بالدف ضاربًا،فشيمة أهل البيت هي،......الرقص.

في إحدى الليالي عدت لأجده جالساً معها وهي متكدرة، تتساقط دموعها غزيرة، سألت عن سبب هذه الحالة، فأخبرتني أنه لا يريدها أن تُكمل تعليمها الجامعي، وأنها لكي تتزوجه ينبغي عليها أن تتفرغ لخدمته وخدمة بيته، ثارت ثائرتي لوقاحته، وطلبت منه في غليان هادئ أن يعيد التفكير، إلا أنه نعتني"بالصايع" (أكره هذه الكلمة)، و لم يكتف بذلك بل نعت أمي "بالعاهرة"، و لم أشعر بنفسي إلا وقد لكمته لكمة أعتقد أنها أطارت صف أسنانه العلوي، وما أفاقني هو أن نهلة الرقيقة لم تستطع تحمل المشهد، فسقطت مغشياً عليها.

حاولت إفاقتها فلم تفق، كنت أعرف هذه الأعراض جيداً، ضيق التنفس، التشنجات، أزمة قلبية ولا شك.

أيقظت أمي في سرعة، وحملناها إلى أقرب مستشفى، فقلبها الصغير أضعف من أن يتحمل مثل هذا الانفعال.

ما إن سقطت نهلة حتى هرب العريس، و لم يظهر بعدها أبداً، وأرسل والدته لتطالبنا بالشبكة والهدايا، فهي لا يشرفها أن تناسب ناس "لَمّ" مثلنا.

كانت نهلة تتفهم ما يحدث، وعندما طلبت منها نزع خاتم الخطبة من يدها، لم تصدم، بل بدا عليها أنها استراحت من كابوس، وعندما سألتها عن سبب راحتها، قالت إنه إنسان بشع مغرور دائم المعايرة، وإن سبب رغبتها في الزواج منه فقط هو الحصول على الجنسية المصرية، والجنسية المصرية من وجهة نظري تستحق أن يرمي الإنسان بنفسه في النار من أجلها!

وسيطر عليّ تفكير غريب، لم لا تُلغى الجنسيات، ونحمل جميعاً جنسية واحدة؟ لِم العمل على إحياء الأسباب التي نتفرق من أجلها؟ لم لا نبحث عما يجمعنا ولا يفرقنا؟

بدأت نهلة في لملمة مشاعرها وإحساسها بأنها منبوذة، لا لشيء سوى أن والدها أجنبي، ووالدتها ممرضة، وشقيقها مطرب في كباريه، مسكينة نهلة، ففتاة في مستوى جمالها لو لم يطلق والدها والدتها، لكانت تعيش في قصر من القصور، ولن يوافق والدها على خطبتها سوى لأمير.

اعترفت أمي -فيما بعد- أن هذه الخطبة كانت خطأ منذ البداية، ولأول مرة تخبرني في انكسار أنني كن محقاً، و لم أسعد بهذا الاعتراف، فقد كنت أتمنى أن تسعد أختي المسكينة، حتى لو لم أكن أحب زوجها.

وفي محاولة مني لجعلها تنسى، أخذت إجازة من عملي، وطلبت من كمران (أخي من أم عراقية كردية ومعنى اسمه "سعيد" باللغة الكردية) أن يلاقينا عند الحدود السورية، فنهلة مغرمة بالعراق، وربما تكون زيارتها له، سبباً في سلواها، تعرفت نهلة لأول مرة على زوجة والدها السابقة السيدة "سرور"، وفتنت بمدينة أربيل الساحرة ذات الطبيعة النادرة، ولغة أهلها الغريبة التي لم تسمعها سوى من كمران، عندما يزورنا في مصر، طلبت من السيدة سرور أن تحكي لها عن قصة تعرفها بوالدي، فقالت إنها بعد أن فقدت زوجها الأول، بعدما اعتقل لسبب غير معروف، قررت أن تعتمر، وضلت طريقها، فسألت أحد الرجال الذي لم يكن سوى والدي، فأرشدها إلى الطريق وإلى المأذون، فقد فتن بالجمال الأخاذ والطول الفارع.

عدنا إلى مصر، وكانت في انتظارنا مفاجأة مؤلمة، فقد خطب عريس نهلة السابق، إحدى فتيات الجيران، وحاولت نهلة أن تبدو غير مهتمة، ولكن في ليلة زفافه لم تستطع المقاومة، وأصيبت بأزمة قلبية حادة، وتوقف قلبها الصغير عن الخفقان، و لم تفلح أي وسيلة لإنقاذها!

ماتت نهلة الجميلة، وتحوّل جسدها البض الشمعي، وشعرها الأسود الحريري، وعيناها الزرقاوان.. إلى جثة.

كم أكره الموت عندما ينشب أظفاره في أقرب من للإنسان، لم أكن أصدق أن هذا الكفن الناصع البياض، يضم بين لفائفه نهلة أختي، لم أكن أصدق أنني سأتحمل أن يضعها أحدهم في داخل قبر مظلم وحيدة، ويغلق عليها، ويطلب مني أن أذهب لبيتي، فهذا هو حال الدنيا!

لأول مرة أشعر بالأسى لموت أحد، في كلية الطب رأيت المئات ممن يودعون الحياة، ولكن هذه المرة كدت أجن، فأنا لم أستطع إنقاذها وأنا خريج كلية الطب، ولا حتى استطعت تدفئة قلبها الصغير، رأيتهم بعيني وهم يصعقونها بجهاز الصدمات الكهربائية، في محاولة يائسة لإعادة انقباضاته، ولكنهم فشلوا، ورأيت أمي وهي تصرخ، بينما تمسك بيديها، وتهزها بقوة حتى تفيق من غيبوبتها، ولكنها لم تفق، لم تفق أبداً!

وأتى أبي ليعزّي أمي التي انهارت، وجلب معه إخوتي جميعًا، ليشاركونه في مُصابه الجلل، ولأول مرة ألمح في عينيه شبح دمعة، عندما رأى أمي وقد انهارت، وهو الذي ربّانا على القوة والتحمّل، كانت كلمته المميزة "اللي يبكي ما هو رجّال"،

نبراساً لنا، كم تمنيت أن تترل هذه الدمعة لكي تبرد قلبي الذي كان يحقد على ذلك الجاحد، الذي جاء بنا إلى الدنيا، ثم قذف بنا إلى قارعة الطريق، كم تمنيت أن تكون "نوف" شقيقتي من زوجته السعودية "زينة " هي من ماتت، وليس نهلة، لكان لحق بها والدي، إن والدي هو سبب كل المعاناة التي مررنا بها، تمنيت أن أسأله عن سر دمعته التي يخفيها، لو لم تأخذه العزة بالإثم ويُطلّق أمي ويطردها من جنته، لما حدث لنا كل ما حدث، ولكن لم أتكلم، بل نظرت إليه خلسة وهو يجفف دمعته التي اجتهد في إخفائها.

بعد عدة أيام، عاد إلى المملكة ليستأنف حياته، ربما ليطلق إحدى زوجاته ويصيد أخرى، و لم يبق معي من إخوتي سوى كمران وإياد "شقيقي من زوجة فلسطينية لأبي".

وحاول الجميع جعل أمي تخرج من حالة الحزن هذه، إلا أن كل المحاولات باءت بالفشل، فأمي لا تستطيع تخيّل الحياة بدون نهلة الجميلة.

مرضت مرضاً شديداً كاد يودي بحياتها، و لم يخرجها من حالتها سوى وعدي لها أن أساعدها على أن تعتمر، وتؤدي أيضًا فريضة الحج، فهذا أقل ما يمكن أن نفعله لنخرجها من حالتها السيئة.

عدت إلى عملي بالفندق،وبعد الانتهاء من وصلتي، جلست لأتناول مشروبا مع كمران أخي، وفوجئت بمن يطلب الجلوس معنا، فأذن له كمران وسأله عما يريد، فأخبرنا أنه يريد أن يقوم بإنتاج شريط كاسيت يحمل أغنياتي، حسبته يكذب في البداية، إلا أنه أبرز لي هويته، فعرفته على الفور، إنه مدير إحدى شركات الإنتاج الفني الكبرى، وأخبرني أنه معجب بصوتي وأدائي الرومانسي الناعم.

كالعادة طلبت مهلة للتفكير، فمعنى عمل شريط كاسيت، أن أترك الطب وأتفرغ للغناء، وذلك ما سوف يتسبب في تعاسة والدتي.

مثلما توقعت، رفضت أمي حرمانها من لقب أم الدكتور، ولكن كمران أخي كان له قدرة سحرية على التعامل مع المشكلات، فقد أخبرها أن بالعالم العربي آلاف الأطباء، ولكن لا يوجد به -في وقتها- سوى عدد من المطربين يُعدّ على أصابع اليد الواحدة، وأن من السهل جداً إذا وافقت، أن أصبح غنيًا ومشهوراً، وأحيا في المستوى الذي أستحقه، والأهم أنه يمكنني أن أُكوِّن ثروة هائلة كثروة والدي خلال عدة سنوات، وكانت هذه هي الكلمة السحرية التي جعلتها توافق على الفور، فقد كانت ترغب في جعلي أكثر ثراء من والدي، وأرفع شأنًا منه.. يا للنساء!

ذهبت إلى شركة الإنتاج بالفعل، ووقّعت العقد بعد مداولات، وأخذت أختار الأغاني بعناية، وسجّلتها، وسلّمت شريط الكاسيت للشركة التي طرحته في الأسواق مع الدعاية اللازمة، وتصوير فيديو كليب يحتوي على عدد من الفاتنات، وأصبحت من المشاهير، ولم يعد يخلو بيت عربي من هذا الكاسيت، الذي أكّد للكثيرين أن هناك أملا في النهوض بمستوى الأغنية العربية، وأنه على الرغم من المادة التي طغت على القيم الروحية، إلا أن الرومانسية مازالت تقبع تحت الرماد، وتنتظر فقط من يشجّعها على الخروج.

كنت سعيدًا بعملي الغنائي الأول، فالطعم الذي يشعر به من يفعل الشيء لأول مرة، يفوق بعشرات المرات قدر النجاح الثاني والثالث وحتى المائة.

لم يكن أبي قد علم بعد باحترافي الفن، فللحقيقة لم أجرؤ على إخباره، ولم أستطع جعل كمران يتدخّل في هذا الأمر، حتى لا تتحطم علاقته القوية بوالدي، كما أن مهاراته تنحصر فقط في إقناع النساء، لكن في أثناء وجود أبي مع زوجته الإيرانية في فندق سانت ريجانس بلوس أنجلوس بالساحل الغربي للولايات المتحدة، وفي أثناء فتحها جهاز التليفزيون، فوجئ أبي بي أغني برفقة إحدى الحسناوات، التي ترقص في دلال، فانتفض أبي كالملسوع، وكانت صدمته مروّعة، فاتصل بي ليُسمعني فاصلا من الشتائم والتوبيخ من نوعية "أنت تربية حُرمة"، "يا

ملعون الأب"، "وش تبي تسوى فيني؟"، "فضحتنا"،"الله ياخذك إن شاء الله"، "عساك البلا في شكلك عساك القرف".

واكتشفت موهبة جديدة في والدي، غير موهبة اصطياد النساء، وهي موهبة الإهانات، وكالعادة استقبلت الأمر بالهدوء الشديد والبرود، فلم يستطع أخذ حق مني ولا باطل، تركته حتى يهدأ، فأنا في النهاية مَن أخطأ.

حاولت مهاتفته، لكنه أغلق السماعة في وجهي بعد أن نعتني"بابن المصرية"، وهي الكلمة التي كان يعاقب طلال شقيقي عندما يشتمني بها، كثيرًا ما حاولت توسيط إخوتي أو أعمامي، ولكنه كان صعب المراس.

ولأول مرة أشعر بتعاسة حقيقية، إذ على الرغم من أن أبي كان بعيدًا عني منذ طفولتي، إلا أن وجوده في حياتي كان يمثل لي الكثير، كان يمثل الجبل الذي أستند إليه عندما يميل بي الزمان، كان يمثل لي الأمان المفقود، كنت أعتقد في الماضي أنه لا يؤثر بي، ولكنني اكتشفت العكس، كان يمثل لي كل شيء.

وبعد شهور من الخصام، وانتهى الفرصة عندما طلبني أحد الأمراء لإحياء حفل زفاف نجله، وأطلعت الأمير على ما حدث، فقد كان على صلة قوية بأبي، فوعدني بحل المشكلة في أقرب وقت ممكن، وليلة الحفل فوجئ بي والدي أغني، وغازلته

بأغنية لفنان العرب، إذا أن أبي يعشقه، وما إن انتهيت، حتى ذهبت إليه وقبّلت رأسه ويديه وصدره، فاحتضنني والدي وأخذني معه إلى البيت، ولكنه طلب مني أن أكون قدر المسئولية، وأن أيمم الاتجاه الذي يسمو بالنفس وأن أعبّر عن القضايا التي تعاني منها الأمة العربية، فأغني للقدس ولا أكف عن الغناء للوحدة العربية، فلربما حققت أنا بصوتي ما فشل هو في تحقيقه بزيجاته الكثيرة.

كان الصلح بيني وبين والدي بالنسبة لي كالعودة إلى وطن أحبه وآلفه، وبداية صداقة قوية بيني وبين الأمير عبد الله الذي أعطاني عددا من أغنياته التي يكتبها لأغنّيها بصوتي، بدأت الدوران في ساقية العمل المرهق، من حفلات وتسجيلات، ونسيت نفسي، ومر عام واثنان وثلاثة، وتغيّرت حياتي تمامًا، اشتريت شقة فخمة تطل على نيل الزمالك..خدم....حشم.. كل متع الدنيا أصبحت في يدي، ولكنني لا أستمتع بها، حتى أمي لم أعد أجالسها، فقد كانت تعيش في عالم العبادة والتصوّف، كانت تقضي معظم وقتها في الحرم المكي أو المدني تتعبّد.

يوما ما سقطت مريضة، وحاول الأطباء معرفة السبب، فاكتشفوا أنه فشل في وظائف الكلى، شعرت بالخوف فقد كان المرض في مراحل متقدمة، وما زاد من فزعي، أنني

اكتشفت أن أمي ذات كلية واحدة، فقد باعت إحدى كليتيها لتستطيع الإنفاق علينا، دون أن تطلب مساعدة والدي، لقد كان ذلك الرجل سبب كل مآسينا!

أفقدتني الصدمة قدرتي على التفكير، فأمي تُحتضَر، وهي الشيء الوحيد الذي يجعلني قادراً على مواصلة الحياة .

اتصلت بوالدي الذي أتى على الفور، وأطلعته على ما حدث، فصُدم والدي صدمة عمره، وأثقله الذنب، فعرض على الأطباء أن يتبرع لها بكليته، ولكن أنسجته لم تتفق مع أنسجتها، وكذلك أنا، رصد والدي مبلغًا كبيراً لمن يتبرّع بكلية لينقذ أمي، ولكن كان الأوان قد فات، أسلمت أمي الروح في هدوء، وكانت لحظة من أصعب اللحظات التي مررت بها، بل أكثرها صعوبة، شعرت بأن روحي أنا هي التي ذهبت!

أمي مَن احتضنتني وأرضعتني وسهرت على راحتي وباعت لحمها لإطعامي، تركتني إلى الأبد، سيطرت عليّ حالة من الاكتئاب، لم تستطع الأدوية تخفيف حدتها، فلا الموسيقى ولا الغناء ولا أي شيء قادر على إخراجي منها!

أخذني والدي لأقضي معه بعض الوقت لعلّي أغادر أسوار تلك الحالة النفسية السيئة.

ووجد أبي أن أفضل طريقة للتخلص من هذه الحالة هي الزواج، فأنا شاب طبيعي، وأصبحت وحيدًا بعد وفاة والدتي، ومشهورًا، فلابد إذن من زوجة لتحميني من الانحراف، وهي ليست غريبة عني، إنها "نوره" ابنة عمي.

سيطر عليَّ شعور بالغضب، فأنا لا أستطيع الزواج من "نوره"، إنها ابنة عمي، وهي جميلة ورقيقة، وقد كنت أعشقها في وقت من الأوقات، لكنني الآن ناضج ومشهور وظروفي الآن تتطلب امرأة مختلفة، فهي أصبحت بالنسبة لي مثل أختي، وغضب والدي لمقاومتي الفكرة، وفي محاولة منه لتوريطي، طلب يدها من والدها أمامي في أثناء جلوسه معنا، تصاعدت الدماء في رأسي، ولكنني شعرت ببعض الاطمئنان، عندما لاحظت اضطراب عمي الذي طلب فرصة ليستشير "نوره".

طالت المدة ولم يرد عمي، وقابلت نوف شقيقتي نوره وسألتها عن رأيها بصراحة، فردت ردها الشهير "ما أبي أتزوج مروان هذا مرة ما هو برجّال"، ونقلت لي نوف الحديث بالحرف الواحد وفوجئت أنا "مرة" (ولو أنها كلمة عادية جدًا في الوطن العربي الآسيوي) أنا؟ تلك القبيحة التي كانت تذوب في عينيّ فيما مضى؟ التي كانت دائمًا ما تطلب من شقيقتي نوف تدبير لقاءات لي معها؟ أنسيت كيف كانت ترتجف وتطلب مني ألا أنظر في عينيها مباشرة، فنظراتي تحوّل دماءها إلى جحيم؟ تلك الكاذبة!

وأعماني الغضب..أنا "مرة"؟ ألم تستطع أن تجد مرادفا لهذه الكلمة القبيحة.. حُرمة مثلاً؟!

لم أكن حزينًا لرفضها، بل كان هناك جزء مني سعيد بذلك،ولكن ما أفزعني حقًا، أنها خطبت فيما بعد لطلال شقيقي، وطلال أخي كما أتصوره يشبه إلى حد كبير شخصية عمارة خطيب عبلة في فيلم "عنترة بن شداد" بلا مبالغة، كان ناعمًا رقيقًا شديد الوسامة أنثوي الملامح، يعوم في بحار من العطر عند خروجه من البيت، أتذكر أن أبي طالبه بالتصدّق بنصف المبالغ التي يشتري بها أفخر زجاجات العطر.

لم أجد حقًا سببا مقنعا لقبول نوره لطلال، وفي النهاية نبهتني نوف إلى شيء مهم، أن طلال هو الذراع اليمنى لأبي، بمعنى آخر: المال، نعم المال، ولكنني ثري، وذهبت إلى المرآة أتفحص ملامحي عن قرب، يا للهول! إنني وسيم! إذن ما هو سبب رفض نوره لي..السبب الحقيقي؟

وفاة والدتي أفسدت عليّ نشوتي بالحصول على الجنسية المصرية أخيرًا، فلم أكد أكتب في بطاقة هويتي كلمة مصري، حتى فاضت روحها، كانت كلمة مصري حلما تتمنى تحقيقه، وكثيرة هي الأحلام التي دائمًا ما تتحقق بعد موت صاحبها!

"نوف" شقيقتي، فتاة رقيقة، قمحية اللون، سوداء العينين، تشبه إلى حد كبير والدها "زينة"، ولكنها كانت مختلفة، لا

أعلم سبب ولعها بالأجانب، ولكنها كانت تعشق أي شخص غير سعودي!

كانت الوحيدة من كل إخوتي التي تفخر بأن لها أشقاء مصريين وعراقيين وشقيقا فلسطينيا، وما إن أنهت تعليمها الجامعي، حتى توافد الخطاب الذين رفضتهم جميعًا، فقد كانت ترغب في الزواج من طبيب مغربي وسيم، أجرى لها إحدى الجراحات، أُغرمت به فقط لأنه مغربي، وأغرم بها هو الآخر(لا أدري إن كان حقًا مغرمًا بها، أم أن شعوره كان نتيجة الهدايا القيمة التي كانت تمطره بها).

تقدّم للزواج بها، إلا أن أبي رفضه، فهو لم ينس قصة المرأة الوحيدة التي لم تُسلم له، ورفضت الزواج به، وكانت مغربية.

لم يجد أبي ما يعيب به العريس الوسيم، فأخبر نوف أنه لا يفهم اللغة التي يتكلم بها، ولن يرضى أن يكون صهره ممن لا يفهم حديثهم!

كان سببًا سخيفًا فندته نوف على الفور، وردت ردها الحاسم"أبي..أنا بفهم عليه، أنا أبيه وما أبي سواه، ولو ما تزوجته أبد ما بزوج".

لنوف أختي طريقة مميزة في الكلام، وكذلك شخصية قوية مؤثرة، يكفي أنها الوحيدة التي استطاعت قول هذه الجملة

كاملة أمام والدي، فجميعنا يتجنّب المرور من جواره، بمجرد مرور، ونحن رجال، فما بالك بنوف الرقيقة!

أعترف أن أبي شعر بشيء من الذهول، فهذه أول مرة يتحدّى أحد أولاده إرادته، أو يعقب أحد على قراره، فأبي وهو من هو، تقف ابنته الماجدة السعودية ابنة "زينة" الأثيرة، وتخبره أنها تشتهي رجلاً ما، يا للعار!

كان رد فعل والدي باهتًا، فلم يفعل شيئا سوى جذبها من شعرها الطويل، ورميها على الأرض، ولم يتركها حتى فقدت الوعي، وفقدت بعض أسنانها الناصعة البياض، وكسرت بعض عظامها (فقط سبع عظام).

بعد هذا الحادث، تأكد والدي أن الديمقراطية لا تصلح مع النساء، نعم هو يستشيرهن في كل شيء، صحيح أنه يخالف كل مشورة لهن، ولكنه يستشير بأي حال من الأحوال.. يا للنساء!

دخلت "نوف" المستشفى لعدة أسابيع، لتجبر الكسور التي أصيبت بها، وظننا أنها سعيدة لوجودها بجوار حبيبها الطبيب، ولكن للأسف راحت فرحتها بهذه الإصابات أدراج الرياح، عندما علمت أنه قد تم ترحيله فلم تره.

كان أطرف تعليق على هذا الحادث، هو تعليق كمران عندما أخبرني "أن الرجل الذي يضرب إحدى نسائه أو أولاده بعد هذا العمر، لابد أنه يعاني من مشكلة كبيرة، وهي فقدان

الثقة بالنفس" ولم أفهم وقتها سبب فقدان ثقة الرجل بنفسه، عندما ينيف على الخمسين، ولكن سرعان ما حطم أبي هذه النظرية، والتي كانت مفاجأة حطمت كل نظرياتنا الخبيثة.

نتيجة لشخصية والدي الآسرة، لم يستطع أحدنا زيارة نوف في المستشفى وهي مسحوقة العظام، نتيجة "العلقة" التي أكلتها؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يصل من يكسر كلام أبي ويتحداه، هذه هي القاعدة.

عندما تتحسّن علاقتك بوالدك، ترى الكل يهاتفك ويزورك، وعندما تهب العواصف وتتكدر العلاقة، تجد نفسك وحيدًا، لا أحد يهتم بوجودك من عدمه!

كدت أظلم أبي الطيب، فهو لم يطلب من إخوتي قط عدم زيارة نوف، صدقوني، ولكنهم فقط خشوا على أنفسهم مما يمكن أن يحدث لهم، فعندما استغلت "زينة "قدرها لديه، وحاولت الدفاع عن ابنتها،ما كان منه إلا أن طلّقها!نعم طلّقها ونجحت نوف فيما فشلت أمي في تحقيقه.

طلّق "زينة " التي تزوّجها أبي وعمره تسعة عشر عامًا، أي أنها خدمت في محرابه ما يزيد على الثمانية وثلاثين عامًا!

فعلاً كانت أمي محقة عندما كانت تقول دائمًا "يا مآمنة للرجال يا مآمنة للميّة في الغربال"!

لو أن والدتي كانت حيّة، لم يكن يسعها غير تقبيل نوف، فزينة كانت الوحيدة التي تأمن الطلاق، ليتني كنت هناك لأرى وجهها حين صاح أبي صيحته الشهيرة "أنت طالق"!

لم أندم على شيء في حياتي قدر ندمي على عدم وجودي حينها، فقد رأيت وجهها حين طلق والدي والدتي، ورأيت كيف ابتسم ثغرها الملطخ بالحمرة، وغمزت لأمي بعينها، لن أنسى هذا الموقف أبدًا، نظرة القهر والانكسار في عيني أمي ونظرة الشماتة في عينيها.

ولكن فرحتي لم تدم طويلاً، فقد علمت أن طلال وعبد الله ونواف تدخلوا لفض النزاع، وجعلوا أبي يعيدها إلى عصمته مرة ثانية.

وشعرت بالحقد على زينة، على الرغم من معاملتها الطيبة لي، ولطفها الدائم معي، فقد كانت تعاملني كأحد أولادها، خصوصاً عندما أصبحت طبيبًا، كنت الوحيد الذي يمكنه تخصصه من دخول غرفة نومها لأعالجها.

ظلت نوف في أسر الجبس عدة أشهر، إلى أن التأمت كسورها وبدأت تتحرك، وتم عقد هدنة بينها وبين والدي، تنصّ شروطها على عدم معارضة نوف لوالدي بأي شكل من الأشكال، وأن تعتذر عما بدر منها أمام كل إخوتها، وأن ترسل لإخوتها من خارج المملكة تذاكر الطيران على حسابها

الخاص، ولابد من حضورهم جميعًا لتدشين الهدنة وسماع نص الاعتذار.

عندما هاتفتني نوف لتخبرني بنصوص المعاهدة، أصابني الرعب،فأبي كان من القوة بحيث أجبر نوف على قبول معاهدته، إنني أعرف شقيقتي جيدًا، إنها قوية الشخصية لدرجة أنها لا تنكسر بسهولة، ولا حتى بصعوبة، كانت نسخة مصغّرة من أبي، ومعنى أنها استسلمت..أن أبي سيغتر وسيبطش بالجميع بمن فيهم أنا.

سافرت إلى المملكة لأحضر حفل توقيع الاتفاق، حضرت المهزلة كما اعتاد كمران أن يسميها، واعتذرت نوف لوالدي لأول مرة عما فعلت، ولكنه كان اعتذارا شامخا يتناسب مع قوة شخصيتها، لم يسعدني شيء في هذه الرحلة سوى قبول كمران العمل معي مديرا لأعمالي، فقد كنت في حاجة لمن يساعدني، ولن أجد أفضل منه، فهو ذو شخصية قوية ناضجة، مفاوض بارع مسيطر، واثق من نفسه، ولا يتساهل ولا يفرط في حق من حقوقه، والأكثر من ذلك أمانته الشديدة، وحبه وإخلاصه لي، كما أنه ذو علاقات واسعة.

وبدأ العمل يأخذ منحى آخر منذ عمل كمران معي، إذ افتتح مكتبا لي في باريس، واستطاع التعاقد مع أكبر شركة لإنتاج الأعمال الفنية في الوطن العربي.

كان يتحكم في كل شيء، بوصفة مديرًا لأعمالي، ينظم مواعيد الحفلات، يتفاوض مع متعهدي الحفلات، كل شيء.. كل شيء، ومنذ حصلت عليه تفرغت للفن والطرب فقط.

مرت عدة سنوات،تنقلت فيها من نجاح إلى نجاح، وأخذتني ساقية العمل من حفلات، وتسجيلات، وبحث عن الكلمات المناسبة والألحان التي تقتحم القلب وتخدر العقل وتكسبني المزيد من الاحترام في عيون جمهوري الكبير.

نوّعت في الاختيار، ما بين الحماسي الوطني، والعاطفي الرومانسي، واستطاعت إحدى أغنياتي الوطنية أن تملأ الدنيا وتشغل الناس، وتسببت في جدل كبير، وانقسم النقاد إلى قسمين، قسم مؤيد لي، إذ ينبغي على المطرب أن ينتقد مجتمعه ويبين سلبياته حتى يتسنى للمسئولين معرفة موضع الخطأ (كان ذلك بإحراجهم وإظهارهم بمظهر المقصرين)، والقسم الثاني هاجمني هجوما شرسا، واتهمني بأنني عميل، وانتعشت في ذهنهم نظرية المؤامرة، فأنا أحاول الإساءة إلى البلد الذي آواني وضمني بين جوانحه،بإظهار شعبه بمظهر المتخلف الفقير، وانبرت صحف المعارضة تتهمني بالجاسوسية والغناء في إسرائيل، والتآمر ضد مصر والسعودية أيضًا، وغيرها من الاتهامات.

والغريب أنني لم أتأثر، ومبيعات الكاسيت آخذة في الزيادة، حتى تخطت المليون نسخة، مما حدا بالشركة أن تجدد عقدها معي لمدة خمس سنوات، وأعجبتني اللعبة لولا أنني لم أستطع تكرارها في الوقت الراهن، على الأقل حتى لا أكرر نفسي.

كان هذا النجاح في العمل يوازيه فشل ذريع في حياتي الشخصية، إذ لم أستطع الحصول على الفتاة المناسبة للزواج، فللحقيقة لم تقابلني الفتاة التي أستطيع أن أحبها وأثق فيها، لأسلمها قلبي ومشاعري واسمي الغالي، كنت أتعذّب كشاب وحيد يقضي الليلة التي لا يعمل بها، برفقة أشباح لا تُسمن ولا تُغني من جوع، كنت أتعذب وأنا أرى رفاقي وإخوتي متزوجين وسعداء مع زوجاتهم، وأنا لا أجد من يؤنس وحدتي، كنت أتمنى أن أشعر بمثل الشعور الذي أحس به كمران عندما حادثته زوجته على الهاتف، فتركني في منتصف ليلة باريسية ممطرة شديدة البرودة، ليرتمي في أحضان زوجته، وعاد بعد عدة أيام رائق المزاج متجدد النشاط.

كنت أرى غسان صديقي بصحبة زوجته ريما، وأتحسر على الحال الذي وصلت إليه، فأنا على الشاشة البطل الهمام والشاب "الفتك"، فقد نجح مخرجو الفيديو كليبات في أن يجعلوني مثالا للفتى الشقي محطم قلوب العذارى وملك الغرام، كنت أحزن عندما يلقبني أحدهم بـــــ"ملك الغرام"، كدت

أصرخ ذات مرة في إحدى المذيعات، بعد أن لقبتني بذلك اللقب، وأخبرها أن ملك الغرام هذا خائب، ينام في فراشه ليلاً يعضّ في وسادته، محاولاً كمد رغبة قاتلة تكاد تعصف به!

كنت في التاسعة والعشرين، ومشهورا وميسور الحال، والأسوأ أنني شاب طبيعي جدًا (لكم تمنيت أن يكون استنتاج شاهندا صحيح!) وعلى الرغم من ذلك، لم تستطع فتاة أن تجتذبني،نعم تصلني يوميًا مئات الرسائل على بريدي الإلكتروني،من فتيات يرغبن في ملاقاتي ورؤيتي، وأحيانًا تصلني رسائل تثير كل الغرائز المكبوتة بداخلي، لكنني من بين ملايين الفتيات لا أحد واحدة!

سافر كمران ليبارك لأبي زيجته الجديدة، فقد تزوج من لبنانية هذه المرة، وجاء مذهولاً، وعندما سألته عن سبب ذهوله، أخبرني أن زوجة والدي الجديدة ما هي إلا صاروخ لبناني أرض جو، محمل بآلاف الرءوس النووية، إنها في الثامنة عشرة من العمر، شديدة الجمال، شديدة الرقة، رآها كمران عندما فاجأته هو ووالدي في المجلس (لم تكن تعلم أن أبي برفقة أحد بالطبع) و لم يجد كمران وصفا لهذه الرائعة سوى كلمة "سيكسي"، نعم فأبي لا يتزوج امرأة غير مثيرة، ولا يتزوج من تعدت العشرين، فهو مغرم بسن "التاش".

لأول مرة ألمح في عيني كمران هذه النظرة، نظرة حائرة، وربما حاقدة على ذلك المتصابي الذي تزوّج فتاة في سن أصغر من أصغر أولاده، ولكن ما أثار حنقي حقًا أن لها أختًا زوجها أبي من نواف أخي المتزوج من اثنتين غيرها، وشعرت بالغيظ لفعل هذا المتصابي الذي ضنّ عليّ بتلك الفاتنة، وسلّمها لنواف المتزوج، لم يكن هذا عدلاً، فأنا أتلوى في فراشي وحيدًا وذلك السخيف ينعم بثلاث جميلات؟

منذ رفضتني "نوره"، وهو لم يشغل باله بزواجي، وراح يتزوّج هو، كم تمنت أحقادي لهذا الرجل أن يصاب بالخيبة، ليتذكر غيره من المحرومين!

أخذتُ عدة أيام حتى أستطيع نسيان ما حدث، وما خفف عني حقا هو زيارة إياد لي، وهو ناشط سياسي وصحفي جريء، مثقل بالإباء والشموخ، كما ورث عن والدي جانبه الطيب، عندما أخبرته بسبب غضبي من والدي ضحك كثيرًا، وفاجأني برد فعله، فهو الآخر أعزب، ولابد أنه يعاني مما أعاني منه منذ رفضت "ديما" –صديقته– الزواج به، بحجة أنها لن تتزوج حتى تتحرر فلسطين، فهي أبدًا لن تتزوج من رجل يمكن أن تصفعه مجندة إسرائيلية على وجهه أمامها.

لم تكن زيارة إياد لي للترويح عن نفسه، بل كانت ليطلب مني أن أغني في حفل خيري كبير، يخصص عائده لصالح أسر

الاستشهاديين الذين دمرت بيوتهم بعد استشهاد أبنائهم، كانت فرصة عظيمة لكي أفعل ما يجب عليّ فعله تجاه فلسطين الحبيبة، وكنت متحمسًا جدًا للفكرة، وتحمست أكثر عندما علمت بأن المسئولة عن هذا الحفل هي السيدة "مونيا ياسين".

كانت من أشهر سيدات الأعمال الفلسطينيات المغتربات، ذات نشاط اجتماعي كبير، شديدة الثراء، شديدة الاحترام، لم تتزوج منذ استشهاد زوجها الناشط الكبير في إحدى الفصائل الفلسطينية.

سعدت بالتعرف إليها، و لم أدر سبب سعادتي الغامرة، أهو رؤيتي لنوع مختلف من النساء؟ كانت مختلفة، مختلفة جدا، متزنة، عاقلة و محترمة، لم تفقد الوعي عند رؤيتي، كما عودتني المعجبات، حادثتني كإنسان عادي، يا الله! منذ سنوات طويلة لم أحصل على حديث ممتع كهذا، كان حديثا في صميم العمل، لم يتعد شيئًا آخر، ولكنه كان ممتعًا.

كنت أنفّذ كل ما تقترح بدون مناقشة، وهذا ليس طبعي، فأنا مشاكس كبير، لأغازلها وضعت الشال الفلسطيني الشهير على كتفيّ، وبعد الحفل شكرتني على هذه اللفتة الكريمة، كم كانت ساحرة!

بعد الحفل انتهت علاقتي بها تقريبًا، وللحقيقة كنت أتمنى أن ترفع سماعة التليفون، وتدق رقمي ولو عن طريق الخطأ!

وقتها لم أكن مراهقًا، ولكن لا أدري ما فعلت بي السيدة "مونيا"، كنت أتذكر كل كلمة خرجت من بين شفتيها، كل همسة، وعلى الرغم من فارق السن الكبير بيننا، إلا أنني لم أعيره أي اهتمام.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، خرجت لتناول العشاء في أحد المطاعم الشهيرة بباريس، والتقيت بها مصادفة، ولن أستطيع وصف مشاعري حينها، فقد رفرف قلبي محلقًا حولها في سعادة، واقتربت لتسلّم عليّ في شموخ، فقبلت يدها الناعمة تأدبًا، ودعوتها إلى العشاء، وجلسنا معًا فترة طويلة.

في الليل، كنت أجلس وحيدًا أعد الدقائق، أبحث عن أي عمل يلهيني عن التفكير، أبحث عن أي شيء يسليني، أفتح جهاز التليفزيون على الأخبار، فلا أرى سوى مشاهد القتل والدم العربي الرخيص يراق بلا ثمن، والغراب الأسود ينشر جناحيه المشئومين على أفغانستان والعراق وفلسطين، ويتطاول على أُسود سوريا، يا له من متجبّر!

أترك الأخبار وأدير المؤشر على القنوات الرياضية المتخصصة، فأنا أهلاوي صميم، تصفعني النتائج، هزيمة منكرة للأهلي أمام..هزيمة أخرى..هزيمة! لم يستطع الملف المصري لتنظيم كأس العالم ٢٠١٠ جذب أي صوت، فحصلت مصر على كعكة حمراء مستديرة أو تأدبًا "BIG ZERO" هل هذه

مصادفة، أم أن هناك مؤامرة لإفساد مزاجي؟-(خلينا في المزاج) -أعشق قنوات الموسيقى المتخصصة، تصفعني الأغاني الحديثة التي تعتمد اعتمادًا كليًا على اللحم الرخيص، ولا شيء غير اللحم الأنثوي المباح، آهات....... غمزات....تنهيدات مثيرة وكلمات إباحية، حركات لا تحدث سوى خلف الأبواب الموصدة، هل هذا هو عالم الفن الذي أنتمي إليه؟ هل هذا هو هدف الفن في الوقت الحاضر؟ إثارة الغرائز؟ فقط إثارة الغرائز؟

أتذكر كليبي الأول، عندما قبّلت الموديل في رأسها، وحملتها، وما إن فعلت، حتى قامت الدنيا و لم تقعد، واتهموني بإفساد الأخلاق...أين هؤلاء النقاد الآن؟.. أين؟

بعد أن أيأس، أغلق جهاز التليفزيون وأجلس لألعب لعبتي المفضلة.. وهي عد الدقائق.

تذكرت هذه المعاناة وأنا أجلس أمامها، وأتطلع إليها، إنها تذكرني بالأميرة ديانا، نفس قَصّة الشعر، نفس الأناقة، ترتدي (تايير شانيل)، وتضع عقدًا من اللؤلؤ يشبه عقد ملكة بريطانيا.

إن هذه المرأة تسحرني، لا لن أتحمل، سأقبلها وليكن ما يكون...ماذا؟ هل جننت؟ربما تمنيت للحظات أن أكون مجنونًا، حتى لا يحاسبني أحد على ما أفعل!!

كان الوقت قد تأخر واستأذنت بطريقة مهذبة ووعدتني بلقاء عاجل، كدت أموت وأنا أعد الأيام ممسكًا بالموبايل،

أتوسل إليه أن يدق، ومتأهبًا للرد في أي لحظة، كنت أتعذب، ترى هل فقدت عقلي؟ أم أن هذه الحالة التي تعتريني نتيجة للحرمان فقط؟ حرمان جعلني أسيرًا للموبايل وحوّلني إلى "عبده مشتاق" آخر، ينتظر مكالمة، أعرف مسبقًا أنها لن تتم!!

كم أكره الحرمان، أسوأ شيء في الدنيا أن تمتلك كل شيء، وفي نفس الوقت تشعر بالحرمان، يا الله! متى سيدق الهاتف؟

فجأة دق الموبايل، يا إلهي.. إنه أبي، فتحت الموبايل في سرعة وحادثته، كان حزينًا متلهفًا، وسألته عما يؤلمه لهذه الدرجة، فأخبرني أن نوف أختي تعاني من مرض غريب، تنتابها أعراض هستيرية، وتصرخ لأسباب غير معروفة، وتمشي وهي نائمة، وعرضها على كثير من الأطباء في المملكة، ولم يجدوا سببًا لهذه الأعراض، لم أجد بُدًا من مساعدته، فهو أبي على كل حال، وطلبت منه إرسال نوف إليّ في باريس، لكي أعرضها على عدد من المتخصصين ليشخّصوا حالتها، فلابد أنها أصيبت بكبت، نتيجة لحرمانها من حبيبها، ولاعتذارها لهذا الطاغية أمامنا.

رافقها كمران إلى باريس، وما إن وقعت عيناي عليها حتى انتابتني حالة من الألم، يا إلهي.. ماذا حدث للطيبة والرقة المتناهية والحب؟ لم أر أمامي سوى شبح غريب الملامح، وحاولت معرفة سبب ما أصابها، ففاجأتني بسر لم يخطر أبدًا

على بالي، نوف سليمة تمامًا ولا تعاني من أي مرض عضوي أو نفسي، ولكنها تمثّل المرض حتى تنتقم من والدي على ما فعله بها، فليس هناك انتقام على الأرض أسوأ من الشعور بالذنب، ولن يتحمل أبي بالطبع قسوة هذا الشعور، وسيجيبها إلى رغبتها في الزواج من حبيبها المغربي، يا لها من ممثلة! امتنعت عن الطعام والشراب حتى يذبل جسدها، وقرأت عدة كتب عن الانفعالات الهستيرية لكي تجيد تمثيل الدور بطبيعية، لم أتفاجأ أبدًا باعترافاتها، فأنا أعلم أن نوف قادرة على طي المسافة بين المملكة والمغرب مشيًا على الأقدام حتى تصل لحبيبها.

كانت نوف قد أعدّت السيناريو من قبل، فعندما تأتي إلى باريس سيقوم كمران بالاتصال بوالدي، ليخبره أن الأطباء لم يستطيعوا تشخيص المرض الذي أصيبت به نوف الحبيبة، وفي اليوم التالي، أقوم أنا بالاتصال به مرة أخرى لأخبره أن سبب المرض ما هو إلا عفريت عاشق لنوف تلبسها عندما حزنت على فراق حبيبها، ولابد من عرضها على بعض المشايخ ليستطيعوا إخراج هذا العفريت الآثم الذي تلبس نوف الجميلة!

إنها مهمة صعبة عليّ –كطبيب– أن أخبر والدي بهذه الخزعبلات، فنحن في الألفية الثالثة، وما زالت المرأة العربية تؤمن بهذه الخرافات، حتى أبي المثقف الذي ذوب أكثر من ثماني عشرة امرأة.. صدّق أن ابنته تلبسها جني عاشق، وعاش الدور،

وتأثر عندما أتى إلى باريس بصحبة أحد المعالجين، فهو لن يجعل ابنته تعالج على يد رجل لا يثق به، وفي الجلسة الأولى أملى العفريت مطالبه حتى يترك نوف، وكان أولها تزويجها ممن تحب، وعدم التحرش بها، والاعتذار لحبيبها، يا له من عفريت متطلب ولكن لا بأس.

تجرّع أبي (المقلب)، وأرسل في طلب العريس، وأمّن له وظيفة تدرّ عليه ربحًا خياليًا، وكل ذلك في سبيل شفاء ابنته الأثيرة، إنها مأساة تلك التي نعيشها ...عفريت؟ هل هذا معقول؟ ..

في خضم هذه الجريمة التي اشتركت في ارتكابها، نسيت سؤالا واحدا كان يفترض بي أن أوجهه لوالدي، وهو.. ما المميزات التي توجد في نوف حتى يعشقها جني؟ فأختي ليست بارعة الجمال حتى يختارها ذلك الجني عديم النظر ويفضلها على بني جنسه!

لم أستفد من قصة نوف سوى بشيء واحد، هو أنني أبعدت تفكيري قليلاً عن مونيا، فما إن انتهيت من نوف، حتى سافرت في جولة فنية استمرت شهرين،وما إن عدت إلى باريس وفي أثناء نومي حتى فوجئت برنة الموبايل!

لم أصدق عندما قرأت اسمها، إنها هي! رددت عليها في لحظة واحدة، ولن أصف مشاعري وقتها، فقد فارقت الأرض

والسماء وحلقت في سماء أخرى وعالم آخر، وعندها فقط شعرت لوعة الشوق إلى الحبيب، الشوق الجارف!

طلبت مني الذهاب إليها لتناول العشاء، كنا في الحادية عشرة صباحًا، والعشاء في التاسعة، ولكم أن تتخيلوا كيف يمكن لشاب في مثل عمري أن يجلس في فراشه منذ الحادية عشرة صباحًا إلى الثامنة مساء، وهو يعد الثواني والدقائق!

اعتقدت أنني أصبت بنوع من الجنون، فأنا في حالة غير طبيعية، أعشق سيدة تكبرني بأكثر من عشر سنوات،لا تتحجب، قوية الشخصية، ذكية بل شديدة الذكاء، وهذه قمة المأساة، . إنني أعشق المرأة الغبية التافهة، إذا سألتك سؤالا أو طلبت منك فتوى ما وأخطأت في الإجابة، فهي مسألة عادية، أما إذا حدث المثل مع امرأة ذكية، فسوف تفتح عليك طاقة من جحيم!

في الموعد المحدد،ذهبت إليها متأنقًا، إنها تعيش في شقة فخمة الأثاث والمفروشات، رائعة الذوق، تنم عن ثراء شديد، واكتشفت نظرية جديدة عندما رأيتها، أن المرأة الثرية تهين مالها لكي تصبح جميلة، ولكن الجميلة أحيانًا ما تهين جمالها لأجل المال!

بدت فاتنة في عيني، جلست أمامها أتفحصها بنظرة فهمتها فورًا بحدس الأنثى، اكتشفت لحظتها أنها أنثى أيضًا، ولابد أنها

حرمت من الحب مثلي، فجلست أتخيلها مستلقية في فراشها ليلاً تنادي شبح زوجها القتيل!

حاورتها، أتعبتني، المرأة الذكية المثقفة دائمًا ما تكون متعبة، فيجب أن تحرص على سلامة معلوماتك، سلامة منطقك، حسن أسلوبك وتيقظ ذهنك، فهي دائمًا ما تباغت وتتكلم في الأشياء التي لا يتطرق إليها سوى الخواص، ولكن (على مين؟ ده أنا مروان)، ليس غرورًا بالطبع، ولكنها ثقة تصل أحيانًا لجنون العظمة! حاولت جذبها إلى ما أريد، فجذبتني إلى الموت، نعم الموت بدون مبالغة، أرادت أن تقحمني في المسألة التي ابتعدت عنها قدر المستطاع، وهي السياسة، لم لا تساعد الأخوة في فلسطين بقدر أكبر، إنها تطلب مني أن أكون الوسيط بين الفصيلة الفلسطينية المسلحة التي يعمل إياد بالجناح السياسي فيها، والممولين، اقشعر بدني، فهي إذن لا تهتم بي لشخصي، بل تحاول توريطي، قلت "إنني فاهمة ده معناه إيه؟ ده الموت!" ردت: " بتقصد الجني؟".. باغتني ردها "سيبيني أفكر" في محاولة يائسة للتنصل.. "ما بدها تفكير".. هاجمت.. " لو انكشفنا هتبقى كارثة".. تعللت بالخوف، فردت في ثقة "عالقليلة بنموت أبطال".. "بتطلبي مني المستحيل!"

"ما بعترف بهالكلمي".. "سيبيني أفكر".. كان ردي الجبان النهائي، وتركتها وأطلقت ساقي للرياح، ذكرتني ليلتها بشاهندا عندما كنت أفر منها.

شعرت بالرعب والذعر معًا، ففي مكان بعيد داخلي، يقبع مروان آخر، يوصف أحيانًا بكلمة جبان، أي محاولة مني للاندماج في خلية من هذا النوع، معناه ضياع مستقبلي المهني، وأنا أريد التمتع بحياتي، لا أحب المعتقلات والسجون، ولا أريد أن تنتهي حياتي نهاية مأساوية كنهاية الليدي ديانا مثلاً!

ما زلت شابًا لم أنعم بحياتي بعد، ذهبت إليها لأنعم بالحب فسقطت في بئر عميق، حقيقة كنت في صراع قاتل بين مساعدة إياد وكل الأشقاء في فلسطين وواجبي وحياتي ومستقبلي، فأنا لا أستطيع الوقوف في وجه حبة قلب الغراب الأسود! تركت فرنسا كلها لأُحيي عدة حفلات في أمريكا وأستراليا، ووجدتها فرصة ذهبية للهرب، فمنذ ليلتها لم أتصل بها، ولم تتصل بي، إنها مجنونة حتمًا لتطلب مني مثل هذا الطلب، أنا مروان الذي لقبتني الفضائيات بــــ"أمير العشاق" و"ملك الغرام"، أتنازل عن عرشي وأذهب بقدميّ إلى الهاوية؟ لا هذا لن يكون.

أعترف أنني مغرم بإياد، فهو أخي المميز، وهو الدينامو المحرك لهذه الفصيلة وكذلك مغرم بديما صديقته، لدرجة أنني طلبت منها الزواج (بعد رفضها لإياد بالطبع)، فرفضت بحجة أن"الشاب الحليوة ما إله أمان"، والأكثر من ذلك أنني متوله بحب مونيا، ولكنني لا أستطيع التنازل عن كل ما جنيته من حب وتقدير، لأرمي بنفسي في النار.

أنا لم أطلب شيئًا محرّمًا، لقد كنت فقط أريد الزواج وإكمال نصف ديني، ماذا أفعل وقد رفضتني ابنة عمي لأنني (ماني برجّال) ورفضتني ديما الجميلة بحجة أنني (حليوة)، والثالثة تريد ضمي لتنظيم سري مسلّح!

هل الزواج أصبح جريمة في هذا العالم؟ هل هذا ما يحدث عندما يريد المرء أن يتجنّب الحرام؟ إنني لا أريد أن أخطئ في حق نفسي وحق عائلتي، ولا أريد ارتكاب جريمة تعافها نفسي.

إنني شاب وسيم ومشهور، والأسوأ أنني شاب طبيعي، أغني للحب وأنا محروم منه، أتعذّب عندما تحيط بي الجميلات عرايا من كل اتجاه، وأنا مسكين أتصبب عرقًا، وأحاول أن أتجاهل وجودهن؛ حتى لا ترتفع درجة حرارة قلبي.

في أحد الحوارات التي أجرتها معي إحدى المذيعات المتبجّحات سألتني: "أغنياتك كلها أحاسيس ورومانسية مفعمة بالحب هل أنت في حالة حب؟".. لم أشأ الاعتراف بأنني فاشل، فرسمت على وجهي لون ابتسامة قائلاً "وليه لأ؟ جميل إن الإنسان يكون فيه حد في حياته"، لم أكن أكذب وقتها، ولكنني خجلت من كوني خائبًا لا أستطيع اجتذاب النساء.

عندما عدت إلى باريس، زارني إياد وأخذ يسألني عن الأسباب التي دفعتني للابتعاد عن مونيا، فقد أخبرته أنني أحبها،

واستغل هذا الخبيث هذه المسألة حتى يجعلني أرضخ لطلبهم، فهم لا يطلبون مني شيئا خارقا، هم فقط فكروا فيّ لأنني وجه جديد لا يعرفني أحد في عالمهم، ولن يتصوّر أحد أن مطربًا (تافهًا) مثلي، يمكنه القيام بمثل هذا العمل، حاولت التراجع متعللاً بقوة الموساد، ودقة معلوماته، إلا أنه أخبرني أنهم لا يطلبون مني حمل السلاح ولا أي شيء، وإنما مجرد الاشتراك مع مجموعة من رجال الأعمال الذين من الصعب عليهم أن يظهروا في الصورة، لأن هذا يمكن أن يُضرّ بمصالحهم، وهم من سيتصلون بي، وربما ستقوم بالعمل الصعب، أنا فقط واجهة بعيدة كل البعد عن القتال، واجهة مُؤمّنة تمامًا، فطمأنني وكالعادة طلبت منه مهلة للتفكير.

وفي إحدى الليالي، استبد بي الشوق، ووجدت نفسي في منزلها وهي جالسة أمامي باسمة، لا أعرف كيف وصلت إليها في الحقيقة، إنها كمغناطيس مركزي في منتهى القوة، جذبني لدرجة جعلتني لم أنظر في الساعة التي تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، لا أعلم لم ارتميت في حضنها كأنها أمي، غمرتني بحنان طاغٍ، إنها تفتقدني هي الأخرى، ولكن ليس كرجل، كطفل حُرِمَت منه، أخبرتها أنني أوافق على كل ما تطلب مني، قبّلتني على جبيني قبلة دافئة، فاستنكرت ما فعلت، هل هذه القبلة فقط هي جزائي؟ إنني أرمي بنفسي في النار —يا امرأة—! قبلة أمومية؟ يا الله؟ هل القبلة منها بهذا الثمن الغالي؟ القبلة بحياة كاملة؟ وحياة من؟ حياة "ملك الغرام"؟

إنها حنون، تعاملني كأنها أمي، تهتم بي بشكل مبالغ فيه، تسأل عني، أحيانًا تطهو الطعام بيديها الناعمتين وتحضره لي، مرضت ذات مرة فجلست بجواري في المستشفى إلى أن شفيت تمامًا، فقررت مفاتحتها، ذهبت إليها وقلت لها في جرأة أحسد عليها: "تتجوزيني؟"

- "مين أنا؟ " استنكرت في دهشة!

- "إنتِ طبعًا " قلت مؤكدًا.

ردت في سخرية "أنا قد الماما يا مارو".

(أحب اسم مارو الذي يشعرني كأنني رضيع) "أنا ما يهمنيش السن أنا عايزك إنتِ وأنا عارف أنا عايز إيه".. قلت وأنا أكاد أركع أمامها.

- "وأنا ما تركتك يا حبيبي، لسّاني معك".. ردّت في دبلوماسية.

- "أنا عايز ست أتجوزها..أنا تعبت!" قلت في جوع واضح.

- "حبيبي اتزوج مخلوقة تليق لك..إنت صغير وسيم" رد رقيق منها.

- "عايزك إنتِ".

- "مستحيل".. رفض قاطع.

تيقّنت وقتها أنني سيء الحظ!ربما أكون مسحورًا،أو ربما سكنني عفريت (يطفش) كل من أحبها! أرمي نفسي في المجهول من أجلها وترفضني كزوج، لتعيش مع شبح زوجها القتيل،هل هذا الشبح أجمل مني؟ أم يحبها أكثر مني؟تلك الغبية..إنني شاب قوي عريض المنكبين مفتول العضلات، إنني فتى أحلام أكثر من نصف عذارى الوطن العربي!

لقد يئست، ولكن لا، سأمنحها فرصة أخرى لتحبني، إنها تستحق هذه الفرصة.

بدأت عملي الجديد الذي لم يشغلني قط عن عملي الأصلي، وشعرت بشعور غريب رائع شعرت لأول مرة بأن لي كيانًا، شعرت باحترامي لنفسي، وارتفعت روحي المعنوية بطريقة جعلتني أبدو كصبي في العاشرة، كنت أشعر أن الدنيا ملك لي، ولم لا وقد وافقت مونيا على الاقتران بي؟ لقد انفك النحس أخيرًا، وسأتزوج وأنعم بجسدها، كما نعمت بعقلها وحنانها، عقدت قراني عليها في إحدى الليالي (كان في السر بالطبع)، وكانت مونيا تؤجل زفافنا بطريقة أقلقتني، فقد كانت حزينة ونظراتها تائهة، كنت أشعر بها على الرغم من محاولاتها المستميتة إخفاء هذا الحزن عني، وفجأة وبدون سابق إنذار سقطت مريضة، اكتشفنا أنها مريضة بمرض قاتل-"اللوكيميا"- وحالتها في الأطوار الأخيرة، كانت تعلم منذ البداية ولكنها لم تخبرني وكان مصابي جللاً!

إنني أعشقها،ولكنني اكتشفت لذة تفوق المتعة الجسدية، متعة أن تساعد من تحب وتُشعره بالأمان والحنان، لم أتركها و لم أستطع التخلي عنها، إنها تتألم على الرغم من أنها تخفي عني إحساسها بأي ألم، ولكنني طبيب في الأصل، كنت أتمنى أحيانًا لو لم أكن طبيبًا، ولكنني كنت أثق في رحمة الله، لقد تزوجتني لكي أتمكن من ميراثها، فهي بلا وريث، وهي تعلم جيدًا أين سيذهب هذا الكم الهائل من المال.

عندما اشتد عليها المرض، طلبت منها أن أعيش معها في بيتها حتى أستطيع مراعاتها، فلن يمكنني العيش في بيتي وأنا لا أعلم ماذا يحدث لها، ولأول مرة يحتوينا فراش واحد ولكن....لا أجد من الكلمات ما أعبّر به، إنها مريضة...كنت أحتضنها في حنان، فقط كما كنت أفعل مع أمي قبل انتقالها.

ألغيت كل حفلاتي ومشروعاتي الفنية، وجلست بجوارها، واستعملت صوتي استعمالاً آخر، كنت أقرأ لها القرآن، وكانت تحب قراءتي، وتصحح لي أحيانا عندما كنت أخطئ.

قوة شخصيتها كانت غريبة، فهي لا تأبه لا بالسرطان ولا بالألم، وكل ما تهتم به هو القضية التي تناضل من أجلها، لا تخشى الموت، كنت أخشاه عليها أكثر من خشيتها منه، كانت مؤمنة، والإيمان سبب هذه القوة الآسرة، لم يخفت بريق عينيها أبدًا، ضعفت أمامها إحدى المرات وأخبرتها أنني أتمنى أن نتمكن من هزيمة السرطان بداخلها سويًا (على الرغم من علمي أنها في

النزع الأخير) ردّها أصابني بالحيرة "السرطان هون مش هوي اللي بيوجعني، اللي بيوجعني السرطان يااللي بقلب فلسطين"! هذه امرأة تحتضر ولا تهتم بالموت إطلاقًا، إنها تعتبره صديقا قادما، وكل ما يهمها هو قضيتها التي ناضلت من أجلها! هل يمكن لحب الوطن أن يتحوّل لدماء تسري في الجسد؟ إنني أحب مصر وأحب المملكة وأحب الوطن العربي كله، ولكنني خجلت من نفسي لكوني لا أمتلك مثل هذا القلب الشجاع!

في إحدى الليالي، جلست أقرأ لها آيات من القرآن، فهي تستريح كثيرًا عندما أقرأ لها، وتلعثمت عند إحدى الآيات، فصححتْها لي، وطلبت مني قراءتها ثانية، فتلعثمت للمرة الثانية، ولكنها لم تصحح لي، رفعت رأسي لأسألها أن تصححها لي مرة ثانية، إلا أنني اكتشفت أن الروح الذي تسكن هذا الجسد قد تخلت عنه، و صعدت في موكب مهيب إلى بارئها.

الموت يحيط بي من كل اتجاه، أختي وأمي ثم حبيبتي، هل هذه مصادفة؟ لم أجد كلمة تصبرني سوى "إنا لله وإنا إليه راجعون".

وهبت لي شقتها الفخمة التي لم أحلم قط بامتلاك مثلها، عندما دخلتها أول مرة بعد وفاة مونيا، كانت مظلمة كئيبة، أشعلت كل الأنوار، لكنها ظلت مظلمة، ولِمَ لا وقد غابت شمسها إلى الأبد!

مر عامان وأنا غارق في الحفلات وتجهيز الأغاني، وبداخلي قلب جريح يئن في صمت موجع، أظهر أمام الناس بابتسامة عريضة، وأخفي داخلي نفسًا كسيرة، لم أدخل باريس منذ فقدها، لم أجرؤ على دخول بيتها وهي ليست فيه.

تعاقد كمران على عدد كبير من الحفلات والمناسبات الخاصة للجالية العربية في باريس، وذهبنا سويًا، فوجدت البيت قد تغيّر تمامًا، فقد غيّر كمران الديكورات والأثاث، شيء واحد لم يتغيّر،هو صورة مونيا التي تعتلي فراشي، آآآآآآآه كم افتقدها!

تركت البيت وأخذت سيارتي وقررت زيارة قبرها،و لم أنس أن أمرّ لشراء باقة من الورود التي كانت تعشقها، جلست أمام القبر، ولو أنني إنسان عادي لسالت دموعي وبكيت في حرقة، ولكن للأسف،على الرغم من كل مواهبي، فأنا لا أمتلك موهبة البكاء للترويح عن نفسي، فعيوني تستنكر الدموع.. أحزن.. أتألم ..ولكن لا أبكي، كم تمنيت أن أبكي ولو مرة واحدة، مرة تريحني من عناء سنوات عمري بالكامل، إنه عذاب، عندما تريد أن تبكي لتخرج ما بداخلك من انفعالات فتخذلك عيناك!

جلست كثيرًا بين المقابر، إلى أن أغمضت عيني، ويهيأ لي أنني غفوت، فرأيت مونيا بأجنحة بيضاء تقترب مني، وتطير من

حولي، أخذت بيدي وقبلتني وطلبت مني الذهاب معها، وجذبتني من يدي وسرت معها قليلاً، ولكنني تذكرت أنها ميتة، فعدت وقد سكن الرعب جوانحي.

فتحت عينيّ وقلبي يدق من شدة الفزع، وفي سرعة غادرت المكان الموحش لأعود إلى كمران.

اتصل بي إياد أخي وأخبرني (في مكالمة مشفرة بالطبع) أن ديما في باريس، وترغب في لقائي.

في المساء ذهبت إلى إحدى الحانات، ووجدتها فاتنة شقراء (تألمت كثيرًا عندما صبغت شعرها الأسود، وسرعان ما اكتشفت أنها وضعت شعرًا مستعارًا)

أحب ديما ولكن ليس حبًا جسديًا،فأنا لم أر فيها عيونًا واسعة ولا شفاه وردية ولا شعرا أسود حريريا، كل ما أراه هو مقاتلة ترتدي بدلة عسكرية، وتمسك بين يديها بــ"R.B.G"، أحب فيها صورة البطلة التي لم يستطع الإسرائيليون ذلها ولا كسر عينيها، فقد اغتصبها أحد الضباط الإسرائيليين بعد اعتقالها وهي في السادسة عشرة، بعد استشهاد والدها وثلاثة من إخوتها، وعلى الرغم من ذلك،لم تنكسر إرادتها، عندما يرغب أحد في الزواج منها تضع له شرطا واحدا، هو مهر رخيص ولكنه صعب، مهر ديما هو رأس الضابط الإسرائيلي الذي فعل بها ما فعل، لم يستطع أحد فعل ذلك سوى إياد

أخي، ذلك الأشقر الماكر استطاع استدراجه وقيّده، وجعلها تقتص منه بقتله على البطيء، كما فعل معها، لم ألمها، فمن حقها أن تقتصّ ممن ذبح كرامتها.

أخذها إلى بيتي لتلتقي بكمران، فهو من يساعدني في مهامي الجسام، وطلبت مني تحويل مبلغ إلى حساب الفصيلة لشراء أسلحة، كما أخبرتني أن أحد قادة الجناح السياسي يرغب في ملاقاتي.

ذهبت لملاقاة القائد،وما فاجأني أنني أعرفه جيدًا،فهو شخصية سياسية معروفة بالتوسط وعدم اللجوء للعنف، وعندما سألته عن سبب اختلاف آرائه عن حقيقتها، أخبرني أنها إستراتيجية لحماية أمنه الشخصي، فكشفُ آرائه الحقيقية لن يفيد القضية، بل على العكس سيُغتال،وتخسر القضية واحدًا من أكفأ رجالها.

في أثناء عودتي من هذا الاجتماع بسيارتي الخاصة،رنّ الموبايل وفي أثناء انشغالي بالرد، فوجئت بسيدة تصطدم بسيارتي، لم أستطع تفاديها، فقد فات الأوان، وتضاعف مقدار فزعي وأنا أفتح باب السيارة لأرى نتيجة الحادث.

كانت سيدة في منتصف العشرينيات تقريبًا، وكانت هناك إصابات كثيرة في مناطق مختلفة من جسدها، وفي سرعة قمت بنقلها إلى المستشفى الباريسي الفخم الذي يعمل فيه غسان

صديقي، وفي أثناء إنهائي إجراءات دخولها المستشفى، رافقها غسان إلى غرفة الطوارئ.

لن أستطيع وصف مشاعر الرعب التي شعرت بها، فوفاة إنسان على يدي معناه دمار مستقبلي المهني تمامًا، لو علمت الصحافة بهذا الحادث ستأكلني حيًا، ستنتشر الشائعات التي تقول إنني كنت أقود السيارة وأنا مخمور، وربما تحت تأثير نوع من المخدرات،وربما كنت بصحبة إحدى الفاتنات، وربما..وربما..

أكره الإحساس بالذنب، لذا جلست في إحدى قاعات الانتظار لأرى نتيجة ما اقترفت، ولحق بي كمران بعدما اتصل بي وعلم ما حدث، كان يحاورني ليخفف عني الضغط الذي أشعر به، وطالت المدة وأنا أنتظر، بعد عدة ساعات أتى غسان ليخبرني أنها لم تفق إلى الآن، وأنهم سيجرون لها فحوصًا عامة وأشعة على المخ، ليكتشفوا السبب الذي أثّر عليها لدرجة فقدان الوعي.

طلب مني كمران العودة إلى البيت للراحة، ولكنني رفضت، فأنا لن أستطيع أن أرتاح وأنا أعلم أنني تسببت في أذى إنسانة، كل ذنبها أن حظها العاثر رماها في طريقي.

مرت عدة أيام وأنا شبه مقيم في المستشفى، وفي الليلة التي عدت فيها لمنزلي، اتصل بي غسان في الصباح الباكر وطلب مني

الذهاب للمستشفى فورًا، وخلال لحظات كنت هناك، ليخبرني بالحدث المزلزل، فقد فقدت السيدة ذاكرتها تمامًا، ومحيت كل المعلومات المخزنة في خلايا مخها!

شعرت بالفزع وقت أن تصورت أن لها حبيبا يبحث عنها، أو طفلا صغيرا ترعاه، أو أما مُسنّة تحتاج لرعايتها، صور كثيرة تراءت لذهني وغسان يصف لي الحالة بالتفصيل، فقد أثبتت نتيجة الاختبارات التشخيصية -مثل تصوير الأوعية الدماغية والأشعة المقطعية على المخ- أنها تعاني من تلف جزئي لخلايا المخ، وأنا -كطبيب- أفهم ما يعنيه تلف خلايا المخ الخاصة بالذاكرة، طلبت من غسان رؤيتها، فلربما تكون إحدى معجباتي وتنتعش ذاكرتها برؤيتي (غرور)، دخلت لأجدها جالسة في فراشها تبكي، ذبحتني دموعها، فلم أكن أتحمل رؤية شخص ما يبكي، فما بالك بامرأة تسببت أنا لها في هذا البكاء!

جففت دموعها في سرعة عندما رأتنا، وسألتها بالفرنسية "comment vas tu " ردت "bien, merci".

سألها غسان إذا كانت تعرفني، فأجابت بالنفي، ما إن سمع غسان ردها حتى قال بالعربية "مخلوقة بهالجمال الرائع ما بتعرفك، خسارة كبيرة لإلك، أنا شخصيًا ما بقى أسمع لك ولا غنية إنت صرت نكرة".

قلت وأنا أبتسم في وجهها، معتمدًا على عدم معرفتها للعربية "فعلاً حاجة مؤسفة إن واحدة بدرجة جمالها ما تعرفنيش، يا خسارة دي تسوى جمهور كامل"، باغتتني بردها بلهجة مصرية راقية "هو المفروض إني أعرفك؟"

نظرنا إليها في دهشة، فلم يتصور أحدنا أنها عربية، لذلك تبسطنا في الحديث أمامها، ولم يرد كلانا، فأكملت "هو حضرتك مين؟" بعد أن تجاوزنا حالة الدهشة، عرّفتها بنفسي، فنظرت إليّ في استنكار وقليل من الاحتقار، أعرف جيدًا هذه النظرة، ولكنني تجاوزتها عندما سألت في دهشة "يعني إيه مطرب؟ يعني بتغني؟"

قلت "أيوه".. "صوتك حلو؟" سألت.. " بيقولوا كده؟"

معظم كلماتها غير مرتّبة، ولكنها للحق جميلة، لن أنسى ما حييت نظرة غسان لها قبل أن تفيق، فبينما كنت أنا أتفقد التلفيات الناتجة عن الحادث، تفوّه بجملة غريبة "هالمخلوقة مش هي يا للي غناها عبد الحليم حافظ والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا؟"

تمتلك شعرا طويلا ساحرا، ووجها قمريا مستديرا كالبدر، وقواما ممشوقا وشخصية حادة الطبع، صراحة أعشق المرأة ذات الطبع الحاد التي ينطبق عليها وصف "الشريك المخالف"، كل شيء أقوله تجيب بعكسه، كل فعل أفعله يسبب لها الضيق، إلى

أن طلب منها كمران مرافقتنا إلى البيت، وكانت الطامة الكبرى، فقد انفجرت فينا كقنبلة نووية واتهمتنا بسوء النية والسلوك.

يعجبني دائمًا أسلوب كمران في التعامل مع المرأة، فبعد أن هدأت قليلاً، أخبرها أنها فاقدة الذاكرة، لا تمتلك من حطام الدنيا شيئا، وهي في غربة لم يستطع أحد التعرف عليها، ولم تظهر نتيجة للإعلان عن وجودها بالمستشفى، إذن هناك حلان لا ثالث لهما، إما أن تأتي معنا وتعتني بها مدام "سيلفيا" مديرة المنزل، وإما الضياع، وكان بديهيًا أن تختار الأول.

جاءت إلى المنزل، تجوّلت فيه بحرية، ولكن ما أزعجني حقًا هو نظرة الاشمئزاز التي تعتلي وجهها دائمًا، إنها ستعيش في جناح يشبه الجناح الملكي في فندق "نيويورك بالاس"، قمة الفخامة والروعة، أتذكر أول مرة رأيته فيها، حبست أنفاسي من شدة الانبهار، أما هي فقد نظرت إليه كأنه "خرابة"، فأصبت بخيبة أمل عظيمة من رد فعلها، وتساءلت هل كانت تمتلك جناحًا فخمًا مطليا باللون الوردي كهذا؟ غرفة نوم تحتوي على مدفأة تعمل بالريموت كنترول، غرفة ملحقة تحتوي على مكتبة ضخمة، تحتوي على مئات الكتب والروايات الغرامية، جهاز تليفزيون عملاق كشاشة السينما، مع ثلاثة ديكودرات وفيديو، خزانة ملابس لم تحصل عليها امرأة من

قبل، لو كنت مكانها لتمنيت أن أفقد ذاكرتي للأبد حتى أنعم بما تنعم به!

كنت أُشرِف على إطعامها بنفسي كما كنت أعطيها الدواء، كم كنت أتألم عندما تخترق الإبرة ذراعها، لم أكن أعلم لم أحتملها.. أهو الخوف من كثرة المشاكل التي يمكن أن تثيرها لي؟ أم هي عقدة الذنب التي تسيطر عليّ دائمًا؟ أم هو شيء آخر لا أعلمه؟ إنها منذ اللحظة الأولى أخبرت الضابط المكلف بالتحقيق في الحادث أنها هي المخطئة، وأنها فاقدة الذاكرة منذ فترة طويلة، حتى تعفيني من المسئولية القانونية!

"مغرور".. كانت دائمًا تنعتني بهذه الكلمة، وهي صفة ظالمة لي، فعلى العكس، أنا شديد التواضع عندما أجالس شخصا غريبا، أجلس صامتًا لمدة طويلة، إن لم يجذبني بحديثه فربما أظل طوال الجلسة صامتًا دون كلمة واحدة، على العكس من كمران الذي يجذب من أمامه بحديثه اللبق المهذب، في الحقيقة كنت أحسده على شخصيته الآسرة التي جذبت "نورا"، وهو اسمها الافتراضي، فقد ذكرتني شخصيتها المتمردة بشخصية "نوره" ابنة عمي.

كان كمران يجالسها ليل نهار، إلى أن استطاع العبور بها من حالة اليأس والحزن، وبدأ في تعليمها كل شيء، من سياسة وأدب وفن، وما أدهشني وأدهشه أنها كانت تتذكر الأحداث

التاريخية بوضوح، وتتكلم في السياسة كرئيس دولة، المشكلة أنها لا تتذكر أي شيء عن شخصيتها، أو الأشخاص الذين كانت تتعامل معهم، أخبرتني ذات مرة أنها عندما تحاول أن تتذكر، ترى أشباحا بيضاء مخيفة تتراقص على خلفية سوداء، أعرف هذا الشعور عندما يكره الإنسان ماضيه ويخشاه، اقترح علينا غسان متابعة جلسات تنويم مغناطيسي، حتى يتسنى لنا معرفة بعض الأشياء التي يختزنها عقلها الباطن.

كانت في غرفة، وأنا وغسان في غرفة أخرى، نتابع ما يحدث من خلال شاشة عرض، وراعني ما حدث لها عندما قام الطبيب بتنويمها، فقد كانت ترتجف فزعًا من شخص ما أو شيء ما لا أدري، إلى أن صرخت وأصيبت بحالة هستيرية شديدة، ولم أتحمل ما رأيت وذهبت لآخذها قسرًا، فأنا لن أعرضها لمثل هذا الموقف أبدًا، إذا كانت قد فقدت الذاكرة التي كانت تحتوي أحداثاً مؤلمة بالنسبة لها، فسوف أمنحها ذاكرة أخرى تمحو ما عانت من آلام، لقد تيقنت تمامًا بأنني أسديت لها صنيعًا عندما صدمتها بسيارتي!

بعد هذا الحدث،توقفت عن نعتي"بالتافه"،واكتفت بإزعاجي فقط في الصباح الباكر.

الاستيقاظ مبكرًا عادة كثيرًا ما أكرهها، لأنني أنام في وقت متأخر نتيجة لطبيعة عملي، أما نورا فهي منذ تعدت فترة النقاهة وهي تصحو مبكرًا لتمارس هوايتين، أولاهما إزعاجي

في أثناء نومي، والثانية النزول إلى الشارع للجري لمدة ساعة كل صباح، تعود بعد ذلك لتعد الإفطار لي ولكمران الذي كان يصحو مبكرًا هو الآخر، لأصبح أنا المُقصّر الوحيد.

ذات صباح، أفقت على صوتها تناديني لأستمتع بنسيم الصباح العليل، قمت متأففًا وتفوهت بجملة حمقاء "إيه اللي أنا عملته في نفسي ده!" ظننتها بعيدة ولكنها سمعتني، ونظرت إليّ نظرة كادت تخسف بي الأرض، دخلت غرفتها لتبدل ملابسها وتخرج بدون أن تتناول الطعام الشهي، ففهم كمران أن شيئًا ما قد حدث، وسألني.. فأخبرته، فوبخني، فهو لا يتورّع أبدًا عن توبيخي بحكم كونه أخي الأكبر، ونزل ليبحث عنها، ولم يجدها في أي من الأماكن التي تتردد عليها، وفي المساء عادت ودخلت غرفتها مباشرة متجاهلة وجودنا، وعندما سألتها السيدة سيلفيا عن سبب تأخرها، لم ترد.

طلبت من كمران الذهاب إليها لتطييب خاطرها، فرفض.. نكاية بي، فأنا من أخطأ وزل لسانه وعقابًا لي على ما اقترفتُ، لابد من الدخول إليها والاعتذار بحرارة.

طرقت الباب، فدعتني للدخول، وكم احتقرت نفسي عندما رأيت وجهها وعينيها اللتين لم تكونا قد تخلتا عن الدموع بعد! جلست بجوارها، حاولت النطق ولكن خذلتني الكلمات،

همست "نورا" فلم ترد، كم أكره المواقف التي أكون فيها مخطئا، فشخصيتي لا يناسبها الضعف ولا الاعتذار، ولهذا كان يجدر بي عدم الخطأ منذ البداية، ولكن طالما أخطأت..فلا ضير من الاعتذار، كدت أقسم أنني غير متضايق إطلاقاً من تكفلي الكامل بها، بل على العكس أنا أسعد جدًا عندما أمنحها عددًا من الأثواب الفخمة أو أشتري لها شيئًا مفيدا مثل "اللاب توب"،حتى تستطيع تكوين علاقات من خلال شبكة الإنترنت، وتسلي وقت فراغها،لا أعلم كيف انزلقت هذه الكلمة العمياء من لساني.

طالت الجلسة وهي صامتة في انكسار لم أعهده فيها، وفجأة قالت "أنا آسفة يا أستاذ مروان إذا كنت ضايقتك، بس أوعدك دي آخر مرة"، حاولت النأي بها بعيدًا عن الاعتذارات قائلاً "اللي مش عايزه يتكرر تاني هو إنك تقولي لي يا أستاذ، إنتي تقولي لي مروان بس"، ابتسمت ابتسامة نصفها سخرية ونصفها الآخر مرارة، ولم ترد، لأول مرة أتسبب بجرح امرأة رقيقة تحتاج إليّ، إن وضعها حساس بالنسبة لأي امرأة، فهي ضائعة بلا اسم ولا تاريخ ولا أصدقاء ولا عائلة ولا نقود، لا تمتلك من حطام الدنيا سواي،وها أنا ذا أعنّف نفسي على مساعدتها، على مرأى ومسمع منها، فهل هناك نذالة أكثر من هذه؟!

في محاولة لجعلها تتكلم، سألتها "إنتي اتعشيتي؟" ردت في انكسار قتلني "مش جعانة".

-"طيب ممكن تعملي لي عشا بإيديكي الحلوة، فاكرة ساندويتشات إمبارح؟"

ردت في ذلة "حاضر".

قامت إلى المطبخ ورافقتها سيلفيا، كانت حجة المطبخ هذه واهية، فأنا في موقف صعب، لن ينهيه سوى كمران، وكمران يتدلل عليّ، ويرفض مساعدتي، وأنا فشلت في جعلها تتكلم.

لم أر مطربا رومانسيا يطلب من المرأة التي آلمها وجرحها أن تعد له الساندويتشات في محاولة منه لاسترضائها، أقسم أن البائع على عربة كشري كان ليخجل أن يفعل ما فعلت،وأنا المطرب الرومانسي الذي أغني للحب والمشاعر والأحاسيس.... صدقت أمي.. إنني فاشل!

دخلت المطبخ وأشرت لسيلفيا فتركتنا بمفردنا، وأخذت أعتذر لها في خفوت وهي تعمل في مهارة وصمت، إلى أن صفعتني بقولها "عايزة أشتغل".. "ليه؟".. رددت في صدمة "أبدًا.. عايزة أستقل بحياتي عنك، أعتقد إني مش هعيش طول عمري عالة عليك" أكره المواجهات الساخنة "أرجوكي بلاش تحسسيني بالذنب أنا ماقصدتش اللي إنتي فهمتيه" ردّت في غضب.."أمال قصدت إيه؟".. ووضعت في موقف لا أحسد عليه، لم ينقذني منه سوى أصبعها الذي جرحته السكين، تنفست الصعداء وأنا أمسك بأصبعها الذي نزف دماء غزيرة، فصيلة دمها نفس فصيلة دمي...جيد،أخذت أطهر الجرح

وضمدته على الرغم من نظرات الغضب التي ترمقني من كل جانب، أنا لا أتسبب لهذه السيدة سوى بالأذى، لا أعلم لماذا تضعني الظروف في مثل هذه المواقف معها، هي طيبة، تذكرني بأمي، تثور لأتفه الأسباب، وابتسامة حانية كفيلة بنسيانها ونوال غفرانها في لحظات، وتعود كأن شيئاً لم يكن!

أحيانا تكون لطيفة، لن أنسى أبدًا مهارتها في عمل محشي ورق العنب الذي دمر النظام الغذائي الذي أتبعه لإنقاص وزني! أو أنسى قيامها بتنسيق الزهور بطريقة مبتكرة، وإهداءها لي في عيد ميلادي، أو الكعكات المحلاة التي تبرع في تزيينها، إن لديها موهبة في تنسيق الأشياء وتزيينها، كم تمنيت لو أنها كانت بارعة أيضاً في تزيين المشاعر.

تركتها عدة أسابيع للقيام بجولة فنية في أرجاء الوطن العربي، ورجعت لأجدها قد غيّرت كل محتويات الشقة، حتى غرفتي الخاصة لم تسلم من لمستها، غيّرت أماكن كل شيء سوى صورة مونيا التي تعتلي فراشي، غيّرت فقط الإطار وقطعة الساتان الأسود التي تدل على أن صاحبة الصورة متوفاة.

عندما دخلت الشقة لأول مرة، خلت أنني أخطأت ودخلت شقة أحد الجيران، ولكنني وجدتها في استقبالي، تحمل على شفتيها ابتسامة، ورحّبت بي وبادرتني بكلمة كمران الشهيرة "جوني پاشي؟" وتعني "كيفك" باللغة الكردية.

ابتسمت لاهتمامها، وأثنيت على أسلوبها المميز في تنسيق الأثاث،سألتني عن كمران،أخبرتها أنه ذهب للقاء زوجته وأولاده.

في المساء فكرت أن أسهر معها وأسامرها، فهي منذ جاءت إلينا لم أجلس معها سوى مرات قلائل، طلبت مني أن أجد لها وظيفة، فهي لا تتحمل أن تجلس هكذا بلا عمل، وجدت أنه من الصعب أن تجد وظيفة لفاقدة الذاكرة، عرضت عليها أن تعمل معي بمكتبي في باريس، تتلقى الرسائل التي تَرِد على بريدي الإلكتروني، وتعرض عليّ أهمها، فاحتدت عليّ فهي تريد أن تعمل بوظيفة محترمة (وكأن العمل معي غير محترم)!

لا أعلم لِم أنسى الكلام عندما أتطلع إلى وجهها، إن نظرت إليها أنسى كل شيء، لها شخصية محببة، سألتني أن أغني لها أغنية من أغنياتي، فغنيت، إنها مستمعة جيدة، اندمجت وغنت معي،لها صوت حنون دفيء ولكنه ضعيف،عرضت عليها أن أعد أنا طعام العشاء، فأنا بارع في إعداد المكرونة بكرات اللحم، ساعدتني، وتم إعداد المكرونة بنجاح، وتناولنا العشاء وسط دهشتها من مقدرتي على الطبخ، حاولت مجاملتها لترد عليّ بمثل المجاملة أو أكثر، فترد في همس "ميرسي"، ألم تلاحظ التغيير في مظهري؟ لقد غيرت (اللوك) -أيتها الغبية- ألم تلاحظي قصة شعري أو العطر النفاذ الذي يخدر الأعصاب؟ ألم تشعري بحدس الأنثى أن هناك بداخلي أسدا جائعا يتحين الفرصة لافتراسك؟ هل تشعر بالخوف لأنني معها بمفردي؟ لا،

إنها لا تعاملني على أنني رجل، إنها تعاملني على أنني أي شيء آخر، كادت الدماء تغلي في رأسي وهي تقرأ لي مجموعة من الأشعار، لها أسلوب رائع في قراءة الشعر، وانسحبت في الوقت المناسب، يا إلهي كنت قد نسيت هذا الشعور!

في اليوم التالي اتصلت بكمران ليأتي،فأنا لن أستطيع التحمل، أخشى أن يفلت الزمام من يدي،ولن أسمح لنفسي بأن أرتكب هذه الحماقة أبدًا!

وصل كمران وجاء ليرى ما أصابني وهاله ما أشعر به، أعرف أنه ملك الحلول الجذرية للمشكلات، أريد امرأة، أي امرأة! لن أتحمل وجودي مع هذه الجميلة بمكان واحد..لا، لن أستطيع، فاجأني كمران بقوله "تزوّج" أو "دش" شديد البرودة سيفي بالغرض.

حل لي ملك الحلول مشكلتي بمشكلة أكبر.. أتزوج؟ موافق ولكن من؟ من ستقبل بالزواج مني؟

إنني (منحوس)، لم أتقدّم لامرأة وأطلب يدها للزواج إلا ورفضتني، من سأتزوج؟ومن ستقبل بالزواج مني؟ هذه مشكلة، أكبر منها مشكلة الالتهاب الرئوي الذي كدت أصاب به نتيجة استخدامي الماء البارد في شتاء باريس!

ليس هناك أمامي سوى نورا، وحتى نورا منجذبة لأخي، فذلك الضئيل ذو العينين الخضراوين والشارب الكث، له

طريقة مميزة في التعامل مع الجميلات، والمهم أنه يرفض تعليمي، ذلك الخبيث جعل نورا بعد عدة أشهر فقط تغازله أمامي قائلة بالكردية "تو زور پياوي پاشي" وتعني بالعربية "أنت إنسان رائع".

عندما تنعت امرأة رجلا ما بأنه إنسان رائع، فذلك يعني أنه يروق لها.. أليس كذلك؟

أخي المفضل معجب بها، أنا لا أنكر عليه إعجابه، فهي إنسانة مزعجة ولكن لها مميزات خاصة، فهي تعشق الأكراد وتحب التعامل معهم، تسأل عن أحوالهم وتاريخهم وتحاول أن تتعلم لغتهم، وكذلك تحب الحديث في السياسة ومتعاطفة جدًا مع الإخوة في فلسطين،ويدمي قلبها لما يحدث من مجازر في العراق.

تعاملها معه عكس تعاملها معي تمامًا، فهي معي باردة متحفظة تبحث عما يثير جنوني لتفعله، لن أنسى ما حييت ما فعلت بكلبي الأثير "كارلو"، فقد باعته في غيابي واشترت بثمنه شجرا وزهورا لتزيين الشقة وتحويلها إلى حديقة، كلبي الأثير الذي كان يسلّيني في وحدتي تخلصت منه بحجة أنها تصلي، لذلك لا يمكن أن يعيش معها كلب في مكان واحد، تلك البشعة، لقد كانت تناديه بالكلب..يا للقسوة!

ساندها كمران، ورجعت عادة، اثنان ضد واحد مرة ثانية، فـ"كارلو" كان يأكل جوارب كمران، لذلك سعد كثيرا بتخلص نورا منه، فهو لا يجرؤ على هذا الفعل الذي يسبب لي التعاسة بمفرده.

طالت جلسة كمران معي، وهو يقنعني بفكرة الزواج، ورشح لي عددا من المعارف، وفي النهاية رشّح لي نورا، فهي جميلة، والأروع أنها فاقدة الذاكرة، نسي أنها لا تستطيع الزواج وهي في هذه الحالة لأنها فاقدة الأهلية، ولابد من وجود وصي، وهذا الوصي غير متوافر لأننا لم نستطع العثور على أهلها، إنها مأساة، ولكن هناك جانب مضيء في المسألة، فطالما رشّحها لي للزواج، فهو لا يرغب فيها كامرأة..

سعدت كثيرًا، فقد شعرت بالاطمئنان على زوجة أخي الحبيبة، فقد شككت في حبه لها،سألته إحدى المرات عن مدى حبه لزوجته، فقال تعبيرا جميلا،قال إنه عندما يتنفس ويأخذ نفسًا عميقاً، فإنه يأخذ نفسًا أخر لها، فهي تسكنه!

في إحدى المرات سألته نورا أمامي،ألا تغار من مروان، فهو شقيقك الأصغر ويمتلك كل هذا الكم من المال والمعجبات والشهرة، ألم يخطر ببالك محاولة الانتقام منه على طريقة فيلم "Body Guard"؟رد عليها ردت أفحمني أنا، قال إنني (أي مروان) لا يمتلك أي شيء، فهو مسكين، أما هو فيمتلك بيتا

صغيرا وزوجة محبة وثلاثة أبناء أشقياء، بمثابة الأوكسجين الذي يغذي خلايا دمه!

شخصيته الجبارة أعتقد أنه ورثها عن والده، كان كمران بالنسبة لي يمثل سلطة الأب الغائب عن كل الأحداث المهمة في حياتي، عندما يكون بجواري أشعر بأمان مريح، سافرت معه إلى العراق في أحد الأيام، ورأيته وهو يلاعب أطفاله الثلاثة، نفس مقدار الحنان، يحمل "دانيه" على كتفيه، ويُجلس الولدين على ركبتيه.

أعرف أن هناك غريزة اسمها غريزة الأبوة، ولكنني أجهل الإحساس بها، طريقته في التعامل مع أولاده تدهشني، فأبي لم يحمل أحدنا على كتفيه من قبل، كنا تلعب في فناء المترل في المملكة، وعندما نسمع صوت سيارته يتفرّق الجميع، ولا تجد لهم أثرًا، أرى كمران يطعم أطفاله كأحد الطيور التي ترجع إلى العش في الظلام حاملة الطعام لأفراخها، كنت أتذكر الصفعة التي كنت أنالها عندما أرفض الطعام بيدي، وأصر على الأكل بالملعقة، يا له من فارق شاسع!

يا الله! دائما أشعر بالرثاء لنفسي من هذه الوحدة القاتلة، يا لي من مطرب رومانسي (فتك) صائد الجميلات،مفرمة النساء..كم تكذب الصحافة!

فقدان الذاكرة نعمة، كثيرًا ما أحسد نورا عليها، ولحسن الحظ بدأت هي الأخرى تدرك ذلك، في البداية لم تكن تتوقف

عن البكاء وندب حظها الذي أوقعها في طريقي، ووحدها وحبيبها الذي يلوعه فراقها (كانت دائمًا ما تفترض أن لها حبيبا ما).

خرجت من مرحلة التمحور حول الذات، عندما أمّن لها كمران وظيفة في إحدى المجلات التي تصدر في باريس، ومن وقتها تغيّرت كُليًا، عدوانيتها تحوّلت إلى هدوء، نشاطها الزائد تحوّل إلى نشاط عادي، تحولت كلمة "تافه" التي ما كانت تصفني إلا بها إلى "مروان" وأحيانًا "ملك الغرام"، كم أحب هذا اللقب، فأنا أستحقه حتمًا ولكنني لا أدري لِم أستحقه!

بدأت في الاستماع إلى أغنياتي، وكفت عن معايرتي بأغنية "تبكي الطيور" لوائل كفوري،وأصبحت علاقتها باللاب توب الخاص بي علاقة جيدة، بعدما حطمت الجهاز الخاص بها عندما تطاول عليها أحد شباب النت،وكلمها بطريقة غير مهذبة، المشكلة الوحيدة هي أنها دائمًا ما تستطيع سرقة كلمة المرور الخاصة ببريدي الإلكتروني، وهذا ما يزعجني قليلاً!

عندما تعيش في أجواء الشهرة والنجومية، ترى الأمور بطريقة مختلفة، ترى كل شيء في غير وضعه الطبيعي، كل من يعاملك.. يعاملك على أساس أنك نجم مشهور، لا يحاول أحدهم التعرف إلى الشخص القابع وراء شخصية النجم الشهير، تصبح أسير مجموعة من القواعد والالتزامات، لا يمكن

أن تظهر بوجهك الحقيقي، لا يجب أن تتبسط في الحديث، يجب أن تتعامل بخيلاء وغرور، يغلفك إطار خانق من (البرستيج) الذي أبغضه، كل حركة محسوبة،كل همسة، كل تصرف يوضع على شريحة الميكروسكوب لكي يتم تحليله، إنه جو صعب للعيش به، أتمنى أحيانًا أن أفقد ذاكرتي لأنسى من أنا وأتصرف بطبيعتي وأنزل لأمارس الجري في الشارع كل صباح مثل نورا، وأدخل النت بشخصيتي الحقيقية، دون أن أتعرض لمضايقات، أتمنى أن أنزل أحد أحياء القاهرة الفقيرة لأتناول ساندويتشات الفول والطعمية، دون أن يراقبني أحد، إنها البساطة التي أطمح أن أعيشها ولو لثوانٍ معدودة.

فكرت بالابتعاد عن جو المدينة،فقررت أن أصحب نورا وكمران وسيلفيا إلى رحلة بحرية على متن أحد اليخوت، بعيدًا عن البر ومشكلاته.

استحسنت نورا هذه الفكرة،ولكن كمران اعتذر لسفره للمملكة ليلتقي بوالدي،في صباح أحد الأيام أخذت نورا وسيلفيا على متن أحد اليخوت وأبحرنا، السماء زرقاء والمياه زرقاء، لا صحافة، لا تليفزيون، ولا أي شيء، فقط أنا واللون الأزرق الذي يتوه نظري عند محاولتي التركيز فيه.. هنا في عرض البحر يمكن أن أفعل ما يحلو لي، خلعت ملابسي وقذفت بنفسي في الماء، يا له من شعور رائع وأنا أتأرجح بين الأمواج مستسلما لها (كجاكوزي) ضخم، مغمضًا عينيّ في هدوء وسكينة، إلى أن سمعت صوت نورا تقول:

- مروان تعالى ليطلع لك قرش ولا حوت.. كفاية عليك كده.

أفاقتني من نشوتي، تلك الجبانة، إنها تخاف من البحر، ولكن دعوتها للمجيء:

-تعالي انزلي الميّة ومش هتندمي.

-أنا مابعرفش أعوم.

-أعلّمك.

-أنا مش مستغنية عن عمري!

سألت بصوت مرتفع في سخرية واضحة:

- إنتي عايشة ليه؟!

صمتت قليلا، يبدو أنها كانت تبحث عن إجابة تحرجني، وبعد دقائق قذفت بنفسها في الماء بكامل ثيابها، موقف رومانسي رائع، عندما ترمي إنسانة بنفسها في الهلاك لتثبت لك أنها ليست جبانة ولا تخشى الموت، يا الله! إنها لا تستطيع العوم، وبيني بينها مسافة كبيرة، شاهدتها تغطس ولم أرها تطفو، ناديت عليها، طفت وغطست وهي ترفع يديها محاولة الاستنجاد بأي شيء يحميها من موت محقق، ولا أدري من أين أتتني هذه القوة لأصل إليها في لحظات، لأحملها وأضعها على سطح اليخت بمساعدة سيلفيا، كانت شبه ميتة.

ضغطت على صدرها وأعطيتها قبلة الحياة، بعد أن أفرغت كل ما في جوفها من مياه، فتحت عينيها الحمراوين في ضعف وهي تسعل، ساعدتها سيلفيا على تغيير ملابسها المبتلة، بينما جلست في ركن بعيد، استمرئ ما حدث على مهل، سألت نفسي.. لم أنقذتها؟ أليست عبئاً ثقيلاً أتمنى الخلاص منه؟ لو غرقت لما ساءلني أحد، فلا أحد يعرف بوجودها، لِم لَم أتركها تصارع الموت وحيدة إلى أن تنتهي حياتها وتنتهي معاناتي معها؟

صعب أن تعيش مع إنسانة متحجرة المشاعر مثلها، منذ شهور طويلة وهي تعيش معي في مكان واحد، لم تقل كلمة واحدة تعبّر عن إعجابها بي، مستقبلي بالكامل يمكن أن تهدمه فوق رأسي لو علم أحدهم أنني أعيش مع امرأة بمفردنا في بيت واحد!

أكره عنادها معي وطاعتها العمياء لأخي، تشددها معي وتراخيها معه، تحب كل مطربي الوطن العربي إلا أنا، تنتقد في كل شيء، بداية من لون عيني الفاتح إلى طول شعري ولون بشرتي، والأسوأ نقدها لأغنياتي، فدائمًا تسألني وكأنها تتحداني "أين الأغاني الثورية التي تحرك مشاعر الشباب الوطنية، والتي تعمق إحساسهم بما يدور حولهم؟"

تلك البلهاء، لو غنيت أغنية بهذه المواصفات،لن تقبل فضائية واحدة أن تبثها ولو على سبيل الخطأ!

تذكرت مشهد غرقها مرة ثانية، يا إلهي! جزء ما من قلبي متأثر بشدة لما حدث، لم يجدر بي حملها على ما فعلت، وأخذت أتذكر عندما وضعت شفتي على شفتيها لأعيدها للحياة مرة ثانية، كيف أنني لم أستطع الاستمتاع بهذه اللحظة الفريدة؟ فقد كان كل همي أن تتنفس بطريقة طبيعية، لحظتها نسيت نفسي ورغباتي، ونسيت أن من أمامي امرأة مكتملة الأنوثة، كل ما تذكرته هو إنسانة تغالب الموت وتعاني من الاختناق!

للحقيقة، مشاعري الطيبة تجاهها أكثر بكثير من تلك الوساوس الشيطانية، ولكن بقيت لدي رغبة واحدة بعد، أريد أن أرميها في الماء لأكرر ما حدث ولكن على مهل!

عندما عدنا إلى باريس، وجدنا كمران في الانتظار، وفجّر مفاجأة غير متوقعة، فقد أخبره والدي أن "الأولاد حامل"، ويقصد بذلك الزوجة اللبنانية، تلك الصاروخ الأرض جو! نعم فأبي ما زال قادرًا على لعب دور الخيَّال الماهر، بينما نصف أولاده يعانون الخيبة!

اتصلت بوالدي لأهنئه على هذا الإنجاز الرائع، فشعرت به كأنما عاد شابًا من جديد، لقد تذكر أخيرًا أنني لم أتزوج، وعرض عليّ الزواج من إحدى السيدات، فشكرته على مبادرته الطيبة، وأخبرته أنني لا أعاني من أي مشكلة من كوني

أعزب، وقد نيفت على الثلاثين (كنت أكذب بالطبع)، سألني والدي سؤالاً محرجاً "ليش بعد ما تزوجت أبي شوفك معرس"، من أبسط حقوقه عليّ أن يراني (عريسًا)، بالطبع فأي والد جلّ أمله في هذه الدنيا أن يرى أحد أولاده يُزف إلى عروسه الجميلة.

ولّمح لي أبي تلميحا آلمني، إذ أنه يخشى أن يكون لدي خطب ما، ففي المملكة يمكن أن يتزوّج الفتى في سن الثامنة عشرة، ويتزوج مرة ثانية في العشرين، ووضعي بالنسبة لإخوتي وضع غير طبيعي، فحتى إياد الذي كان يشجعني على عدم الزواج، تزوّج هو الآخر وأمهر دينا رائعة الجمال رأس ضابط إسرائيلي عالي الرتبة! وإلى الآن، لا أعلم كيف استطاع ذلك الأشقر الضئيل السيطرة على تلك الفرس العربية الجامحة!

ماذا أفعل لأعالج هذا الوضع غير العادي؟ فكرت واعتصرت ذهني، إلى أن واتتني فكرة غير تقليدية، فكرت أن أحب نورا، فلقد عرفتها وألفت طباعها، ويمكنني التأقلم معها، ولكن ما يخيفني من هذه المسألة هو أن تعود لها ذاكرتها بغتة، لأتلاشى أنا من ذهنها تمامًا، ولكن لا بأس، سأصلي وأدعو الله ألا تسترد هذه الذاكرة أبدًا!

عدة خطوات يجب علي تنفيذها، الأولى هي أن أهتم بها، وأدرس اهتماماتها، ما تحب وما تكره، الثانية أن أمحو من ذهنها فكرة أن الفن عيب، وأن الأموال التي تأتي عن طريق الفن

حرام، الثالثة أن أغمرها بمشاعري، وأحاصرها، إلى أن تخضع وتقع في غرامي.

بدأت في تنفيذ الخطة، اشتريت لها أسورة قيمة، نقشت عليها اسمي ورقم الموبايل السري، وأهديتها لها، فسألت عن سر الاسم والرقم، فأخبرتها أن هذا هو رقمي الخاص الذي لا يعرفه أحد، إذا حدث واستعادت ذاكرتها، لابد من الاتصال بي فورًا على هذا الرقم، علت وجهها سحابة حزن عندما تذكرت فقدانها لأغلى ذكرياتها، شكرتني بحرارة، فطلبت منها أن نصبح صديقين، فوافقت، بدأت في شغل وظيفتها كصديقة لي، كانت تساعدني على انتقاء الأغاني الجديدة، ترد على الموبايل في أثناء انشغالي، تجهّز أفكارا للفيديو كليب القادم، إنها مفيدة كصديقة، والصديقة نوعان، صديقة جميلة تتعب الجسد، وصديقة ذكية تجهد العقل، وتلك المرأة تنهكهما معًا!

عشقت هذه اللعبة، أن تتودد لامرأة ما، وتحاول جذبها إليك، إنها لعبة في غاية الإمتاع، أن تعيش ما بين شد وجذب، ما بين يأس ورجاء، مر شهران على هذه اللعبة ولم يحدث جديد، سافرت عدة أسابيع في جولة فنية استغرقت شهرا، تنقلت فيه بين أمريكا وأستراليا ومصر والأردن وتونس، وعدت إليها وقد عصف بي الشوق لتقابلني مقابلة باردة، أصبت بخيبة الأمل عندما رأيتها تبتسم في وجه كمران كالعادة، وتبثه أشواقها، وتصوّر له كم افتقدته، ولم يخفف عني سوى زيارة إياد لي، الذي ما إن رأيته، حتى أخذت أحكي له عما

أجد من لوعة وأشواق، فهو الوحيد الذي يمكن أن أحكي له مثل هذا السر الخطير، حذّرني إياد من مثل هذه العلاقة، فلربما كانت متزوجة، أو على علاقة بشخص ما أو......أو، إياد عقلاني وليس عاطفيًا، يبدو أنه نسي أيام كان خائبًا مثلي، ولكن عقله دائمًا ما كان يصور له المسألة على أنها هينة، أما الآن فهو لا يعاني من أي مشاكل، فزوجته حامل على وشك أن تضع، لذا لم لا يضع في وجهي العراقيل، فمن يضع يده في الماء البارد ليس بالطبع مثل من يصطلي بالنيران!

عرّفته على نورا التي فتنت به لكونه فلسطينيًا، وتحمست وهي تحدثه عن حبها لفلسطين ورغبتها الشديدة في مساعدة إخوتها في فلسطين، وخلعت خاتمها الماسي (كان الشيء الوحيد الذي وجدناه معها بعد الحادث) وأعطته لإياد، وطلبت منه أن يعطيه لإحدى الجهات التي تهتم بتقديم الإعانات للمنكوبين، وأقسمت أنها لو كانت تمتلك قصرًا مشيدًا من الذهب الفضة والماس، لما ترددت لحظة واحدة في منحه للإخوة في فلسطين، موقفها أثار إعجابي، والذي أعجبني أكثر هو طغيان شخصيتها على شخصية إياد الذي رفض أن يأخذ خاتمها، ولكنه أُرغم على أخذه.

تعلق إياد بها، وبعد أن كان يحذّرني من الوقوع في غرامها، أخذ يشجعني، فتلك المرأة سحرت ثلاثتنا، وحذرني من أبي، فهو إن تعامل معها سيسحرها بكلمتين وتصبح زوجته في خلال خمس دقائق، من أول لقاء بينهما.

عرض عليّ سيناريو لأحد الأفلام الأمريكية ذات الإنتاج الضخم، يحكي عن هارون الرشيد والرجل العربي بصفة خاصة من وجهة النظر الغربية، أعطيت السيناريو لنورا لكي تقرأه، وتعطيني رأيها، فهي ذات ذوق رائع، ولها محاولات جميلة في الكتابة الروائية، وما إن قرأته حتى ثارت وهاجت وماجت، وأيقظتني من نومي في الرابعة صباحًا لتوبخني، عندما سألتها عن سبب غضبها الجارف، أخبرتني أنه يُصوّر العرب على أنهم حيوانات، لا يهتمون سوى بنزواقم ومتعهم الحسية، كما أن الفيلم بالكامل عبارة عن مشاهد قبيحة، إن قمت بتمثيلها أمام إحدى الممثلات الغربيات، فسوف أفقد كل شعبيتي في الوطن العربي.

قالت لي جملة أغضبتني، قالت إن هذه النوعية من الأفلام هي النوعية التي يسمحون فيها لممثل عربي أن يمثلها، لأنه لو كان فيلمًا محترمًا، لعرضوه على ممثل غربي وليس عليّ، هالني ما سمعت منها، ولم أفعل شيئا سوى تمزيق السيناريو، على الرغم من حسرتي الشديدة على تلك المواقف الساخنة التي فقدتها!

عرض عليّ أحد الملحنين كلمات أغنية أعجبتني، ولكنها دويتو بين شاب وفتاة، وحاولت البحث عن مطربة في سن مناسبة لسني، وتصلح أن تكون حبيبتي في الأغنية، إلى أن اتصلت بي المطربة "ريماس رامي" وعرضت علي مشاركتي في (الدويتو)، وكنت في موقف لا أحسد عليه، فـ"ريماس" مطربة

صاعدة جميلة مغرية، صحيح أن صوتها يذكرني دائمًا بنقيق الضفادع، ولكنها مثيرة، كان الشباب يلقبونها ب"مطربة البكيني"، كم أحب هذا اللقب!

عندما بدأت رحلة الفن كانت منبعجة ككرة مطاطية، وفي خلال عدة أشهر، تحوّلت إلى غصن بان، ومن ملامح إفريقية رواندية إلى ملامح أوربية خالصة، إن شاركتني في غناء هذا الدويتو، فهو اعتراف مني بأنها تصلح للغناء، وسأخسر مبادئي، إنها (خنفاء) لا تصلح سوى للأداء الصامت، ولكن وجودها معي في هذه الفترة، ربما يحرّك مشاعر نورا المتحجرة.

طلبت من كمران أن يجهز منزلي لحفل ضخم، لأستقبل فيه هذه الجميلة، وعددا من أصدقائي، فقد مرّ وقت طويل منذ احتفلت بمناسبة ما، وسألني كمران عن سبب هذا الحفل الضخم، فأخبرته أنني سأحتفل بعيد ميلاد نورا الافتراضي!

وصممت نورا على إعداد كل شيء بنفسها دون اللجوء إلى المطاعم المتخصصة بمثل هذه الحفلات، حتى الزهور نسّقتها بنفسها، حقيقة أصابتني حالة من الانبهار عندما رأيت الحفل على الطبيعة، إنها شديدة المهارة، شديدة الدقة والإتقان، خبيرة في الاقتصاد، بمبلغ بسيط حصلت على حفل لم أتصور أن تنجز كل متطلباته بهذه الدرجة من الكمال!

حضرت ريماس كالعادة مرتدية شيئا ما لا أدري له اسما، شيء شفاف تمامًا، طوال الحفل أجهدت عينيّ في معرفة لون

البطانة الداخلية له، لأكتشف في النهاية أنه بلا بطانة من الأساس!!

رقصت معها، وأخذت أستمع إلى نكاهًا التافهة غير المفهومة وأضحك بصوت عال لأجذب انتباه نورا، التي كانت تتحدث في موضوع جاد مع ريما زوجة غسان صديقي.

تحمّلت كل هذا الكم من الملل، لكي أجذب انتباهها، فتجاهلت وجودي، أخذت ريماس إلى مكان بعيد وأخذت أحدثها عن آمالي وأحلامي، وأنني أحتاج إلى من تشعر بي، لكي تلاحظ نورا غيابي وتبحث عني، فلم تلحظ غيابي، وجلست أتساءل في جزع: هل أنا غير مؤثر لهذه الدرجة؟

كانت ريماس قد وصلت لدرجة كبيرة من الذوبان، كادت قمز أعصابي، ولم يرحمني سوى كمران عندما افتقدني وجاء ليبحث عني، ففوجئ بي أقبّل باطن يدها في رومانسية، تنحنح كمران ونظر إليّ في استنكار، بينما ابتسمت ريماس في دلال، وناداني لأقدم أغنية لأصدقائي، فأنا من يضيفهم وليس هو.

غنيت مع ريماس إحدى أغنياتي المفضلة، وهي تتحدث عن شاب يحب فتاة وهي لا تشعر به، واندمجت في الأغنية لدرجة أنني قبّلت ريماس في خدها قبلة حارة، إنني خجول جدًا لذلك لم يتصور أخي كم (البجاحة) التي تحليت بها في الفترة الأخيرة، فمرة أقبّل باطن يدها، والأخرى أقبّلها أمام الناس، والآن عليّ

أن أتحمّل كل جمله التوبيخية بهدوء وبدون انفعال، فهو في الأول والآخر على صواب!

بعد أن انفضّ الحضور، دخل كمران إلى غرفته بعد أن نظر لي شذرًا ولم ينطق، انشغلت نورا في الإشراف على تنظيف البيت، ومن الطبيعي أن أخرج لأسألها عن رأيها في الحفل، كان رد فعلها طبيعيًا، لم تتغير، ولم تَغِر، وذهبت كل محاولاتي أدراج الرياح، لم تسألني لِم قبّلت ريماس، كنت أتصوّر أنها ستثور وتنعتني بسوء الأخلاق، كما كانت في البداية، سألتها عن رأيها في ريماس، فقالت في بساطة إنها شخصية ظريفة لها ضحكة رائعة!

شخصية ظريفة وضحكة رائعة؟ إنها تضحك كحصان! إن أسوأ ما فيها على الإطلاق هو ضحكتها، لدرجة أنني في إحدى المرات كدت أضع يدي على فمها لأخرسها!

في اليوم التالي وفي أثناء الإفطار، شعرت أن كمران يتجنبني تمامًا، وما إن ذهبت نورا إلى عملها حتى وبّخني ونعتني بسوء الأدب والمجاهرة بالفاحشة وعدم مراعاة الأخلاق، حتى أقبّل ساقطة مثل ريماس، وأمرني أن ألغي فكرة الدويتو إن لم أجد مطربة أخرى، لم أجرؤ على تبرير موقفي طبعًا، حتى لا أثير شفقته، فعلاً إنني وغد مثير للشفقة حتى أفعل مثل هذه الأفعال، لمجرد أن أثير غيرة إنسانة فقدت ذاكرتها وربما فقدت معها مشاعرها!

طرأت لي فكرة مجنونة، إن نورا تمتلك صوتًا حنونًا، وهو ما أنشده، لم لا أقنعها أن تغني معي هذه الأغنية الرائعة؟ عرضت الفكرة على كمران، فلم يرحب بها، لأن نورا متشددة وسترفض بالتأكيد.

في أحد الأيام، عادت نورا مبكرة من العمل، وكانت في حالة مزاجية سيئة، سألها كمران عن سبب تكدرها، فأخبرتنا أنها تركت العمل، أو بالأحرى طُردت منه لخلاف في الرأي بينها وبين رئيسها الفرنسي حول مسألة الحجاب، فقد طرد إحدى صديقاتها التونسيات لأنها محجبة، وتضامنت نورا معها، ونعتته بالعنصري، ففصلها من عملها، ووعدها كمران أن يبحث لها عن عمل آخر، وطلب منها ألا تبتئس، فهي قد فعلت الصواب.

كان كمران عقبة أمامي، كنت أرغب في الانفراد بها، لذا ما إن عاد للعراق حتى تنفست الصعداء، طلبت منها مساعدتي في غناء الجزء الخاص بريماس، حتى أستطيع الدخول في الجو النفسي للأغنية، وبدون أن تشعر سجلت كل شيء، لها صوت حزين حساس ساحر، وبعد أن انتهينا أخبرتها أنني سجلت كل شيء وجعلتها تستمع لصوتها، إنها لا تؤمن بجماله، لكنها تأثرت بشدة لدرجة أن دموعها تساقطت في غزارة، كانت الأغنية تتكلم عن شاب وفتاة متحابين، وكل منهما في مكان، وعندما يعصف الشوق بالفتى، يذهب ليجد محبوبته وقد فارقت الحياة، حساسيتها المفرطة حركت الحنان بداخلي، وسألتها عن

سبب دموعها، فتعللت بأنها قد تأثرت بالقصة شديدة الرومانسية، فهي تتألم لفراق أي حبيبين.

سألتها هل جربت الحب، فردت بأنها قد جرّبت فقط الفراق، سألتها عمن افترقت؟ أجابت أنها فارقت عالمها كله، فارقت الأهل والحبيب والوطن، ويمكن أن تكون قد فارقت طفلا أو طفلة، فبداخلها حنان كبير، لا يمكن أن يكون سوى لأم.

طلبت منها تسجيل الأغنية معي بالأستوديو، استنكرت طلبي، فهي لن ترتكب هذه الحماقة أبدًا، فصوتها محدود الإمكانيات، كما أنها لا تستطيع أن تواجه الأضواء وترقص وتتعرى، أخبرتها أنني سأستعين بموديل في تصوير الأغنية، ولن يذكر اسمها أبدًا، لم توافق، ولكن نظرًا لإلحاحي طلبت مهلة للتفكير.

في مساء إحدى الليالي الباردة كنت بالخارج، وعدت لأجد نورا في الصالة شبه نائمة، بينما كانت تستمع لإحدى الأغنيات الرومانسية بصوت غريمي في حبها "وائل كفوري"، وقد احتضنت إحدى الوسائد، لأول مرة أتأمّلها على مهل، كانت كطفلة، لمست خدها الحريري في رفق، فانتفضت، شعرت بالإحراج فبادرتها قائلاً:

-إنتي ما نمتيش في أوضتك ليه؟

ردت:

-كنت مستنياك عشان نتعشى سوا.

تعجبت، عندما يكون كمران موجودًا، تتغير معاملتها لي، تناولت عشائي وانتظرت مشروبي الدافئ الذي تعده نورا لي كل ليلة بوصفها صديقتي، ذهبت لأغتسل وخرجت لأجد نورا قد أحضرت الشراب، يا إلهي لقد بدّلت ثيابها، وبدت مدهشة بثياب النوم، وجودها معي في غرفتي هذا الوقت يضغط على أعصابي بقوة، طلبت منها إحضار مشروبها لكي ترتشفه معي، فأحضرته وجلست ترتشف في بطء مثير، دق جرس التليفون فذهبت لترد، إنه كمران يخبرها أنه في الطريق إلى باريس، وسيصل في ساعة متأخرة.

استلقيت ووضعت رأسي على الوسادة، وأغمضت عيني، دخلت فوجدتني على هذه الحال، نادت:

- مروان؟

رددت:

- أيوه؟

- إنت نمت؟

- لأ مش هنام خليكي معايا سلّيني لغاية ما يجي كمران.

- نام إنت، إنت عندك شغل كتير بكره، أنا هستناه.

- مش جاي لي نوم، نورا ممكن تحكي لي حكاية؟

- لأ، بس ممكن أقول لك على فكرة للفيديو كليب بتاع الديو.

يا إلهي إنها لا تترك لعقلها فرصة للراحة والاسترخاء، أيتها العنيد! قلت في رقة :

- احكي يا نورا.

- الأغنية دي عن اتنين بيحبوا بعض، لما راح الشاب لحبيبته لقاها ماتت، ممكن يتعمل سيناريو لشاب فلسطيني رايح لحبيبته، لقي جرّافات العدو هدمت بيتها وهي جواه، وهيحاول يخرجها من تحت الأنقاض، ويفحت بإيديه في الأرض، لكن هيلاقيها ميتة.

جلست أستمع لها وأنا مشدوه، إن لديها أفكارا جديرة بالاحترام، إنه موقف في منتهى الرومانسية، وسيكون له بُعد وطني أيضًا، هذه القصة كفيلة بإنجاح ألبومي القادم نجاحًا مدوّيًا.

قلت في همس: -

- هتسجلي معايا الأغنية؟

قالت في دلال:

- لأ.

- ليه؟

- صوتي مش حلو.

-بالعكس صوتك جميل جدًا.

-زي صوت ريماس مثلاً؟

استنكرت في سرعة:

-ريماس دي إيه؟ دي صوتها وحش.

قالت في دلال:

-بس شكلها حلو.

قلت في سرعة:

-أبدًا لا حلو ولا حاجة، ده كله عمليات تجميل، لكن إنتِ كل حاجة فيكي طبيعية، ده اللي بيعجبني فيكي.

-يعني مش بتحب ريماس؟

رددت في استنكار:

-أنا؟ لأ طبعًا.

باغتتني في سرعة:

- أمال كنت بتبوسها في التراس ليه؟!

لابد أن كمران أخبرها بما رآه، من الصعب عليّ أن أكذّب أخي الأكبر، ولكن لا بأس، سأعتذر له فيما بعد، قلت في هيام:

- ماحصلش أنا مستحيل أبوس واحدة ما بحبهاش.

أمسكت بيدها، فلم تعترض، وقبّلت باطن كفها قبلة ساخنة، فترددت وخجلت، وشعرت بها ترتجف، همّت بمغادرة الغرفة، إلا أنني أمسكت كلتا يديها في قوة، ترغب في الفرار ولكنني لن أسمح لها بالتراجع، اقتربت منها أكثر،حاولت الابتعاد، لم تستطع- أيتها اللعينة -كم أتعبتني وعذبتني هل تعرفين ما هو جزاؤك؟ سأنتقم منك بجعلك تشعرين بنصف ما أشعر به من الشوق إليك، رشفة واحدة من شفتيها جعلتني أنسى كل عذابي وألمي، ولكن لا، لن أرحمها، مازلت أذكر كم ليلة سهرت أناديها وهي تغط في نوم عميق، من الآن فصاعدًا ستتغير هذه المعادلة، أنا من سينام وأنت من ستسهرين في انتظار أن أناديك أيتها المتبجحة، أحطتها بكلتا ذراعي، لم تستطع المقاومة، أحكمت سيطرتي عليها.. بعد لأي وجهد، كفّت عن المقاومة، وكادت تستسلم، لولا شخصيتها المسيطرة، إن أبي سبق له وسيطر على ثمانية عشر امرأة أيتها (الليدي)، إنك تعبثين مع الشخص الخطأ، آه، أحبك، كم تعصف بأعصابي ثورتك، إنها ممتعة، ما إن أخضعتها حتى انقادت لكل أوامري، بعد وقت طويل من المد والجزر والشد والجذب، مر عليّ كأنه لحظات، هدأت العواصف وسكن الجو تمامًا، وأغمضت عينيها في هدوء، وسكنت ارتجافتها، شعرها الطويل كان يتطاير على وجهي ويزعجني، طلبت منها قصّه، وعدت بالتنفيذ بإشارة من عينيها.

لأول مرة منذ سنوات لا أعلم عددها أشعر بمثل هذا الشعور، أشعر بشعور من أصيب بمغص كلوي كاد يقتله، وفجأة وبدون مقدمات سكن الألم، ملامحها المستكينة تعجبني، أحب قطرات العرق المتساقطة على جبينها كالندى على زهرة نضرة في الصباح الباكر.

مرت ساعة أو أكثر، وبدأت الرؤية لديّ، وبدأت أشعر بما فعلت، يا الله! لقد ارتكبت جريمة للتو، لقد لوثت شرفي بهذه الفعلة النكراء، وسمحت لتلك الرخيصة أن تشاركني فراشي، أشعر بالغثيان نتيجة ما فعلت، ماذا فعلت؟ ماذا اقترفت للتو؟

إنني أكرهها، إنها تضع رأسها على ذراعي نائمة في سكون، كأنها لم تدر ما فعلت منذ قليل، لن أسامح نفسي قط على ما فعلت، يا إلهي.. لو علم والدي لرجمني حتى الموت، قطعًا لو لاحظ كمران ما حدث سيقتلني بسلخ جلدي هو الآخر، كمران ! يا إلهي.. إنني أسمع صوته يناديني من بعيد، يا الله! لقد فتح باب الغرفة، إنني في موقف أكثر من صعب، نظرت إلى كمران في ذعر، فسألني عما دهاني، لابد من أنه لم يلاحظ وجود نورا، نظرت بجانبي.. فلم أجدها، أين ذهبت؟ لقد كانت بجواري منذ لحظة واحدة!!

لاحظ كمران انفعالي، فسألني مرة ثانية، واعتذر عن إزعاجي، ولكن نورا قد أعدت الإفطار ودخلت لتوقظني فلم أستيقظ، دخلت لتوقظني؟ إنها لم تفارقني لحظة واحدة! لقد

سهرت الليل بكامله أستمع لأنفاسها بجواري، ماذا يحدث بحق الله؟ !

-"كان كابوسا؟" سأل كمران، فأجبت " كان حلما"، استسلمت للأمر الواقع!!!!

طلبت من كمران أن يتركني لأنني مجهد وأرغب في النوم، وبعد عدة ساعات من الشعور بخيبة الأمل، دخلت سيلفيا لتخبرني بأن on Jour Monsieur Marwan , On peut Manger

رددت في حسرة:

Donnez Moi La Robe De Chamber

ارتديت الروب، وفي طريقي للحمام تعثرت، فقالت سيلفيا في دهشة:

Marwan Fait Attantion!

إنني أبدو كالأبله،ماذا دهاني؟ سألت في شوق:

Ou Est Nora?

ردت في تعجب:

Je Ne peut pasManjer Silvia Je Ne Sais Pas

خرجت سيلفيا بعد أن جهزت لي الحمام الدافئ، فوضعت نفسي في المغطس، أسندت رأسي ورحت في نوم عميق استمر لساعات وساعات، وافتقدني كمران وأتى ليستفسر عن سبب تأخري على البروفات، فغدًا حفل ساهر سيحضره عدد كبير

من الجالية العربية في أوربا كلها، وأنا ما زلت في الحمام، والفرقة الموسيقية تنتظر، وإلى الآن لم أتناول إفطاري مما سيؤثر بالسلب على أدائي الصوتي، وسألني "والله خوش شفيك؟" تعللت بأنني مجهد قليلاً، وسأستعيد نشاطي خلال دقائق، ووضعت رأسي تحت دش الماء الدافئ المنعش.

عندما خرجت، كان الغداء قد أُعد، وجلست نورا أمامي تتناول طعامها بشهية مفتوحة، يا إلهي لقد قامت بتقصير شعرها بصورة ملحوظة!

نظرت إليها وثبت نظري عليها فقالت "ما بتاكلش ليه يا مروان؟"

تلك الوقحة، لم لا تناديني ب"سيدي"؟ أنسيت توسلاتها لي أمس؟ ألم أذلها وأخضعها لإرادتي؟ أنسيت كيف تشبثت بي؟ كيف استنجدت بي لأطفئ لهيب ظمئها؟ إنها لا تخجل، ما زالت مرفوعة الرأس قوية العينين ليست خجلى، على العكس، معتزّة بنفسها، تنظر إليّ في كبرياء وشموخ، يا إلهي، إنني أحاسبها على حلم زارني أنا، كم تمنيت أن تكون رأتني في أحلامها هي الأخرى، لا أدري لِم لم أشعر أن ما حدث كان حقيقيًا، إنني مجهد من فرط المجهود العضلي الخرافي الذي بذلته.

"كان حلمًا"، لماذا أشعر إذن بالسخط عليها؟

وضعت أمامي كمية من الطعام، وانتبهت على صوت كمران "شصارلك اليوم يا أخي؟"

تعللت بالسهر، فردت عليّ أنني لم أسهر، بمجرد أن خرجت هي لترد على تليفون كمران، عادت لتحدني غارقًا تؤرجحني أمواج النوم.

إذن فقد كان حلمًا! سألتها لِم قصّرت شعرها، فأجابتني أنها فكرة كمران، تلك الكاذبة! أنا من طلبت منها ذلك وليس أخي !!

في اليوم التالي طلبت منها أن تحضر الحفل وتراني وأنا أمتلك العالم بين يديّ،ربما ستنبهر بكم الإعجاب وكلمات الاستحسان التي سيمطرني بها الجمهور، وخاصة أن الحفل سيذاع على الهواء مباشرة،وستكون ليلة مميزة ولا شك، رفضت في البداية،ولكن كمران أقنعها وأخذها ليعدّها للحفل، على أن نلتقي جميعًا في المسرح، في الساعة التاسعة مساءً.

ذهبت إلى المسرح فلم أجدهما، إلى أن حان موعد وصلتي الأولى، وغنيت، ولكنني افتقدهما عندما كنت أنظر خلفي لأراهما.

بعد أن انتهيت من الوصلة الأولى، ذهبت إلى غرفتي لتبديل ملابسي، وما إن فتحت الباب حتى فوجئت بمشهد يصعب تصديقه، فأخي وشقيقي.. من اعتبرته كوالدي ..يحتضن نورا، في مشهد أثار كل طاقات الحقد بداخلي.

تركت الغرفة وذهبت لأكمل الوصلة الثانية، ولكنني كنت في حالة من الغضب جعلتني أنسى كلمات إحدى الأغنيات، لم

أركّز في الموسيقى من خلفي، كان كل تركيزي في المشهد الذي رأيته آنفًا، كنت أتخيلهما معًا يغترفان من بحار المتعة التي حرمت منها فأكلت الغيرة قلبي!

الفرقة الموسيقية تعزف لحنًا غنّيته عشرات المرات، وعجزت هذه المرة عن تذكره، كنت في اتجاه، والفرقة في اتجاه، والحفل يذاع على الهواء مباشرة، وتشتت ذهني بين أوامر مخرج الحفل وإشارات المايسترو،ولاحظ الجمهور ما حدث،وطالبني المايسترو بالتركيز، ولولا أنني تماسكت وضغطت على نفسي لانسحبت وتركت المسرح والجمهور والعالم كله، حمدت الله أنني لم أجدهما في الغرفة بعدما انتهيت، وإلا كنت فتكت بنفسي.

عندما عدت إلى المترل، وجدها جالسة في ركن مظلم، لم ألق عليها التحية، وسألت سيلفيا عن كمران، فأخبرتني أنه خرج.. اقتربت من نورا وسألتها عن علاقتها بأخي، لم تجبني، ولم تشف غليلي، اتهمتها بأنها ترغب في خطفه من زوجته الوفية المخلصة، واجهتها بما رأيت،تساقطت دموعها في غزارة، ولا أدري كم كلمة قبيحة أطلقت في وجهها، وكم وصفًا حقيرًا ألصقته بها، لكنها لم ترد.

شعرت بنفسي كقنبلة انفجرت وشعرت بها ذليلة كسيرة، إنها تستحق كل كلمة،لقد رأيتها تحتضن أخي المتزوج والد الثلاثة أطفال!

أخبرتما أنه يحب زوجته وأنه ينظر إليها على أنها عشيقة، فقط عشيقة، سيأخذ ما يرغب منها ويلفظها، إنها الحقيقة، وهددتما أنها إن لم تقطع علاقتها الآثمة بأخي، فلتجد لها مكاناً آخر، دخلت غرفتي وخلعت ثيابي ودخلت لأغتسل، ربما يطفئ الماء البارد اللهيب في داخلي.

وبعد نحو الساعة، أتي كمران، وسمعت صوته يسأل سيلفيا عن نورا، فأخبرته أنها في غرفتها، لم أخرج، فقد كنت أخشى المواجهة، ذهب إلى غرفتها فلم يجدها، جاءني ليسألني فلم أجرؤ على الكلام، نظرت إليه فقط، فسألني إن كنت أعلم أين ذهبت نورا، فأجبت بالنفي،شعرت بحيرته وقلقه البالغ، سألته لم القلق؟.. أخبرني بما جعلني أشعر أن أثقال العالم كله قد وضعت على كتفي، ففي أثناء ذهابهما إلى المسرح، أصيبت نورا بصداع شديد وحالة غريبة من الخوف لا يعلم سببها، و لم تجد محاولات كمران لتهدئتها، ولا أحد يعلم سبب هذا الخوف، فأخذها إلى الطبيب المعالج الذي أخبره أنها ربما تكون قد رأت شخصًا ما -أو شيئًا ما- أنعش في ذاكرتها ذكرى مخيفة أو مؤلمة، مرت عليها في الماضي الذي فقدته، ورافق كمران نورا إلى البيت، وخرج ليأتي لها بالدواء، وما إن عاد حتى وجدني في انتظاره لأحاكمه.

دخلت إلى نورا، فوجدت غرفتها كما هي، ملابسها موجودة، وضعت (الكريديت كارد) على فراشها، ومجوهراتها، وكل شيء، تركت بيتي بدون حتى أن تحصل على(يورو)

واحد، ووجدت ورقة بيضاء مكتوبا عليها بضع كلمات "أيها النجم الرومانسي الشهير شديد الرقة.. إنني طاهرة كماء المطر، ولن أسمح لأي رجل أن يلمسني، مهما كانت درجة اشتياقي إليه، اعتذر لكمران فهو بالفعل يستحق منك اعتذارا".

سقطت الورقة من يدي، فأخذها كمران ليقرأ ما فيها، ثم نظر إليّ في استفسار، غضضت بصري، فلقد كنت أتجنّب مواجهة معه من هذا النوع، وسألني ما معنى ذلك؟ وما سبب ترك نورا البيت في مثل هذا الجو العاصف الممطر شديد البرودة، وهذا الوقت المتأخر، كنت أحاول أن أؤجل المواجهة إلى أن نعثر عليها، ولكن كرامة كمران الكردية أبت أن تسمح لي بالتأجيل، ولم أجد دفاعًا خيرًا من الهجوم عليه، أخبرته أنني رأيتهما معًا في غرفتي في وضع غير لائق، وأنني اعتقدت بوجود علاقة آثمة بينهما، وطبعًا لن أسمح بوجود هذه العلاقة لأنني أحترم زوجة أخي.

كان مندهشًا من اتهاماتي، ونعتني بالغباء والجهل -لا بأس إنه أخي الأكبر- وسألني سؤالا خجلت من توجيهه لنفسي "هل تغار من نورا؟" سؤال لم أحاول إجابته من قبل، إنني أغار عليها يا أخي وليس منها، ولكن لا بأس، لقد أخرجتني من المشكلة ببساطة، لقد أجبت عليه بنعم، صراحة لقد خجلت من ظهوري بمظهر العاشق المتيم التي لا تشعر به محبوبته وأثير شفقة أخي، أخبرته أنني أغار منها، فهي قد استأثرت باهتمامه

وحبه ورعايته، وأصبحت هي في المقام الأول وأنا لم أتعود أن أكون الثاني في حياة أحدهم.

تفهم كمران الموقف وطلب مني اعتبارها مثل طفلة صغيرة، وأن أهتم بها أنا الآخر، وحكي لي ثانية ما حدث في الطريق، فقد انهارت وأخذت تبكي في خوف وفزع، فاحتضنها فقط ليسيطر على خوفها وليطمئنها بأنه معها، ولا يوجد ما تخشى منه، طالما أنه بجوارها، وأقسم لي أنه لم يكن وقتها يحتضن سوى دانيا طفلته الأثيرة.

إذن فقد انتهت مشكلة، وبقيت مشكلة أكبر، أين ذهبت نورا؟ فهي لا أصدقاء لها سوى غسان وربما!

وفي سرعة ذهبت إلى غسان في منزله لأسأل عنها، وتفاجأ غسان عندما رآني في مثل هذا الوقت، فقد كان معي في الحفل منذ قليل، وسألته عن نورا فأخبرني أنه لم يرها سوى مع كمران وكانت متوعكة قليلاً.

شعرت كأن السماء هوت على الأرض وسحقتني، ما الذي يحدث؟ ولماذا يحدث لي أنا بالذات؟ لماذا أصبحت بهذا القدر من البشاعة، لقد كنت رقيقًا وديعًا، إنني أخجل من نفسي فأنا لا أتنمر سوى على هذه المخلوقة الضعيفة! لم؟ لأنها ضعيفة بلا أهل ولا مأوى؟ ألستُ السبب في فقدانها لكل ذلك؟

حتى عندما فكرت فيها، فكرت فيها كحيوان،تذكرت كلمة قالتها لي مونيا في إحدى المرات "من المهين أن تفكر

بجسد المرأة قبل أن تقيّم عقلها" وأنا لم أدع لها الفرصة لكي تجعلني أستكشف الأفكار القابعة بين تلافيف هذا العقل!

بدّل غسان ثيابه في سرعة، وأتى معي لنبحث عنها، وانضم إلينا كمران، وفشل ثلاثتنا في معرفة مكانها، وفي اليوم التالي اتصل بي غسان ليخبرني أن نورا ذهبت إليه وهي في حالة يُرثى لها، وأنه سألها عما حدث، فلم تنطق بكلمة واحدة، وأشارت إليه بأنها تعاني من صداع قاتل، طلبت منه ألا يدعها ترحل لأي سبب من الأسباب، فأنا في الطريق إليها.. لا أدري كيف خلعت ثيابي لأغتسل وأرتدي أفخر ثيابي، وكيف وجدت نفسي أبحث عن أفضل العطور لأضعها، وصرخت على كمران أنني وجدتها، ولابد من أن يأتي معي، فأنا أخشى أن أطلب منها عمل الساندويتشات كالمرة السابقة!

رفضت مقابلتي، ولها كل الحق، فلم ألُمها، دخل إليها كمران وطلب منها ملاقاتي، إلا أنها ولأول مرة ترفض طلبا لكمران، وخرج ليخبرني أنها لا ترغب في وجودي، كان موقفًا محرجًا، ولكن حبي لها انتصر، فانتظرت قليلاً ودخلت لها.. وجدتها مكومة في فراشها، تبكي في حرقة، ذبحتني دموعها، واقتربت إلى أن جلست بجوارها ورفعت وجهها لأنظر إلى عينيها، إنها المرة الأولى التي أنظر إليهما مباشرة بدون نظارة، اعتذرت لها وتعللت بأنني خشيت عليها، فأنا أعتبرها أختي (كنت أكذب) وهي بالفعل صديقتي ولم أكن أعلم بما حدث.

لم تردّ عليّ، وشعرت بالسخافة وأنا أتودد إليها وهي لا تأبه، ولكنني تحملت، فأنا المخطئ في كل الأحوال، لن ينفعني في مثل هذا الموقف سوى إثارة تعاطفها واهتمامها، كدت أعترف لها "أنني أغار من أخي، أنت صديقتي وصديقته، ولكنك تهتمين به أكثر مني، إنك تتعلمين اللغة الكردية حتى تشعريه بالاهتمام، ورفضتِ تسجيل الأغنية معي، تبتسمين في وجهه وتعبسين في وجهي، تطيعينه طاعة عمياء وتعاندينني، تتعمدين إفساد الحمية التي أتبعها لإنقاص وزني بإعداد الوجبات الدسمة التي يحبها ذلك النحيل، والتي لا أستطيع مقاومتها، إلى أن أصبحت في وزن حوت، وعندما يكلفك بمراقبتي في أثناء قيامي بالتمرينات الرياضية لا تسمحين لي بالراحة أو الغش!" بعد صمت دام طويلاً، قالت في همس حنون "كمران بيحسسني بحنان الأب اللي محتاجاه، فرق السن اللي بيني وبينه ورأيه اللي دايمًا بيبقى صح، بيخليني أسمع كلامه، بحس إنه بيعوضني عن أهلي، بيطمني لما بكون خايفة، لكن إنت بتعاملني على إني واحدة من معجباتك، بتحسسني إني عبء عليك، بتعاملني بغرور، أنا مش طالبة منك تهتم بيا لأنك أكيد ما تقدرش، إنت سوبر ستار كبير ونجم مشهور، مش فاضي لي، كل اللي كنت بطلبه منك، إنك ما تجرحنيش، كفاية بقى يا مروان، ده كتير عليا قوي!!"

كان هذا هو الفارق بيني وبين شقيقي، فهو ناضج يعرف كيف يستميل المرأة بطريقة محترمة مهذبة، لا يعتمد على

جسده أو لون عينيه الخضراوين، إنه يعتمد اعتمادا كليا على شخصيته الآسرة، قلت في محاولة يائسة لجعلها تصفح "إذا كان كمران بيحسسك بالأبوة، أنا ممكن أديلك إحساس الأخ الأكبر والصديق، اديني فرصة تعرفيني فيها على حقيقتي، أنا مش سوبر ستار زي ما إنتي فاهمة، أنا إنسان مسكين وحيد، اشتغلت في كباريه عشان أغطي تكاليف دراستي، مش طالب منك أي حاجة غير إنك تديني فرصة، تعرفي فيها مروان اللي ماحدش عارفه، أنا بعترف إني أسأت التقدير، بس أنا أستحق منك فرصة تانية"

كلمتها كحبيب يطلب صفح محبوبته، أعلم أنها متسامحة، إلا أنها اليوم شديدة التشدد، قالت: "ده شرفي ده اللي إنت طعنته يا مروان" قلت في أمل :

-القصاص اللي تطلبيه..هنفّذه.

صمتت والدموع تتساقط من عينيها، فسألتها في حنان افتقدته في نفسي:

– خايفة؟

– قوي.

– من إيه؟

– مش عارفة، حاسة إحساس غريب، بتخيل دايمًا صورة طفلة صغيرة وكلب أسود بيهجم عليها، وبينهش لحمها، أنا خايفة قوي يا مروان، خايفة ترجع لي الذاكرة وأندم إنها رجعت لي!

إنها تتعذب بسبب فقدانها للذاكرة، وتتعذب خوفًا من عودتها، خاصة وأن كل الأطباء أجمعوا على أن هناك مشكلة كبرى في ماضيها، تجعلها تفزع بمجرد أن تتصوّر أنها ستسترد هذا الماضي في وقت ما، وحرت بماذا أرد عليها؟ أؤكد لها أنها ستستعيد ذاكرتها وتعود لأهلها ووطنها وكيانها على الرغم من الآلام التي تنطوي على ذلك؟ أم أطمئنها كذبًا بأن هذه الذاكرة لن تعود لتؤرقها مرة ثانية، وهي التي تؤجل كل شيء، كل إحساس، كل فرحة، إلى أن تستردها؟ لقد علقت في موقف صعب، تقمصت شخصية كمران لأرى ماذا كان ليفعل في مثل هذا الموقف، فقلت بعد تفكير طويل وتوحد تام:

-نوراء إنني إنسانة مؤمنة وواثقة في ربنا سبحانه وتعالى، فتأكدي إنه مش هيخذلك، ما تخافيش، طول ما إني واثقة في قدرته، مش هيتخلّى عنّك أبدًا.

شعرت أنها اطمأنت قليلاً، وأغمضت عينيها، فطلبت منها أن تعود معي، فطلبت مهلة إلى أن تنسى ما حدث، أخبرتها أنني سأسافر بعد يومين للغناء في أستراليا، وسأمضي أسبوعين هناك، وأنني لن أسافر إلا بعد أن تعود إلى البيت، تدللت قليلا، ثم أخبرتني أنها ستعود بعد مدة لم تحددها بعد، طلبت منها تناول العشاء معي في مكان رومانسي، فرفضت.

سافرت لأحيي عددا كبيرا من الحفلات، وفي الليلة الأولى وقبل الصعود إلى "الستيج"،وجدت نفسي مشتاقًا إليها،

وقررت محادثتها، فأنا لن أغني وهي ما تزال متألمة لما فعلته معها، اتصلت بها وظللت معها حتى صفحت عني، وأخبرتني أنني لن أعود إلى باريس إلا وهي في منزلي.

إياد

أنا إياد الوليد، الأخ الفلسطيني لمروان، قصتي مشابهة قليلاً لقصة مروان، بدأت عندما عادت أمي إلى فلسطين، وكنت ما زلت جنيناً في أحشائها،ربتني على النخوة والرجولة والشهامة وحب الوطن، أعمل صحفيًا، وعملت عدة سنوات كمراسل لإحدى القنوات الفضائية الشهيرة.

انخرطت في العمل السياسي عندما التقيت بالأستاذ "جهاد ياسين"، زوج السيدة مونيا، كان يعاملني كوالد مُحب، و تيقنت بأنه إنسان عظيم عندما رصد كل ثروته لصالح الفصيلة التي يتزعمها، وهي كانت في البداية عبارة عن مجموعة جمعيات خيرية تساعد الأسر الفلسطينية على الحياة الصعبة، بتقديم المعونات إليهم، ولكن عندما قامت انتفاضة الأقصى الثانية، تحولت إلى فصيلة مسلحة تقوم بعمليات عسكرية لإرهاب العدو الصهيوني، وبث الرعب في قلبه.

كم أكره العنف والدماء، ولكن العنف لا يولد سوى العنف، إلى متى سنظل ندين ونشجب ونرفض بدون فعل؟!

ما جعلني أنضم لهذه الفصيلة، هو مشهد طفل فلسطيني قتله جندي إسرائيلي وهو في طريقه إلى مدرسته صباحًا، صوّب

الوحش الآدمي سلاحه إلى رأس المسكين وأطلق رصاصة غادرة، ومنعني من حمله ونقله إلى المستشفى، حتى نزف كل دمائه على ثيابي، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وما إن تأكدت من موت الطفل، حتى تحولت إلى إنسان مجنون، وأمسكت بالمجند من عنقه، وكدت أرديه لولا رفاقه الذين تكاثروا عليّ وتسببوا في كسر ذراعي، وأصابوني إصابات شديدة، دخلت على إثرها المستشفى.

تغيّرت حياتي كليًا، فأنا في وطني غريب، ليست لي حقوق، حتى أصل إلى منزلي بالسيارة أترجل عشرات المرات، وأُسأل عشرات الأسئلة، وربما أسمع من الكلمات ما يؤذيني، حتى ديما زوجتي لم تسلم من بشاعتهم، فقد اعتقلت وهي في السادسة عشرة، واغتصبها أحد الضباط بعد تعذيب وإهانة وتجريد من الآدمية.. منذ أكثر من خمس سنوات وأنا أتمنى الصلاة في رحاب الأقصى، ولا أستطيع، آلاف المنازل هدمت، أشجار الزيتون المباركة اجتثت، نساء وأطفال وشيوخ وشباب راحوا غدرًا، وكل ذنبهم أن حظهم جعلهم يولدون ودماؤهم ترسم ملامح شجر الزيتون، أخرج من منزلي صباحًا وأودع زوجتي وطفلي كل يوم، وكأنني لن أعود إليه ثانية.

اليوم صباحًا خرجت من بيتي بعد أن ودعتهم، ولكن إحساسي هذه المرة كان مختلفًا، كنت متيقنًا من عدم عودتي مرة ثانية، ولا أعلم سبب يقيني هذه المرة.

أنهيت عملي في الصحيفة، وذهبت إلى مكتب القائد العام للفصيلة، لنتناقش بشأن بعض التفاصيل، فنحن ندرس القيام برد مزلزل، نتيجة لما فعله العدو برفح ونابلس واغتيال كوادر المقاومة، وانتهى الاجتماع، وفي أثناء عودتي بسيارتي ليلاً برفقة أحد قادة الجناح العسكري للفصيلة، لا أدري بالضبط ما حدث، فقد حدث كل شيء بسرعة مذهلة، لم أشعر سوى بأني صرت خفيفًا جدًا كأنني أطير، كنت أعلو وأعلو لأرى سيارتي وقد أصيبت بعدة صواريخ، وشعرت بالدهشة وأنا أرى جسدي وقد تحول لأشلاء، كان شعورا مؤلما حقًا، ولكنني بالعكس لا أشعر بأي ألم، شعرت بشعور طفل يخرج من رحم ضيق إلى دنيا واسعة، استغرق الأمر بضع دقائق، حتى أستوعب ما يحدث، هل استشهدت؟

هل أصابت الصواريخ سيارتي وحرمت طفلي ذا السبعة أشهر من والده، ورمّلت زوجتي التي لا تملك من حطام الدنيا شيئا سواي؟ وأفقدت الحركة الدينامو الذي يمدها بالطاقة؟ كدت أحزن لولا أسراب الطيور البيضاء التي لاحت لي من بعيد، ها هو الدكتور جهاد يلوح لي بيده، ومئات الأصدقاء يرفرفون عليّ بأجنحتهم، إنه مشهد مهيب..

كنت أصعد وأصعد وأنا سعيد، كنت أرى كل أحبائي الأحياء، ها هي ديما ترضع "مروان الصغير"، وتضعه في فراشه لتتهيأ لملاقاتي، وها هو أبي يقرأ سورة من القرآن لزينة، لتستطيع حفظها، وها هو مروان يتجهز للقاء جمهور كبير،

ويستعرض نفسه أمام المرآة، إنه يقوم بذلك عشرات المرات في اليوم الواحد، ذلك الشاب لن يتغيّر أبدًا!

كلما أعلو، تتضح لي الرؤية أكثر، ألحان عذبة تحيط بي، ونشيد ملائكي رائع يملأ السماء، إنني سعيد الحظ، ها أنا ذا قد تحقق حلمي بالشهادة، ولن أحزن لفراق زوجتي وطفلي، فلهم رب يحميهم، أما الفصيلة التي فقدتني، فهناك آلاف الشباب خير مني، كل سعادة الدنيا لا تساوي لحظة واحدة مما أشعر به، يا الله لقد تحقق حلمي بالشهادة والحصول على إحدى الحسنيين،ها هي نملة شقيقتي في انتظاري،على شعرها تاج ماسي، وترتدي ثوبا أبيض لم أر في مثل جماله، كم افتقدت تلك الشابة رائعة الجمال!

إنه شعور رائع أن تتحرر من أدواتك الجسدية، وتطير وترى أي شيء ترغب في رؤيته، نسيت شيئا واحدا في خضم هذه النشوة، كنت أتمنى تقبيل طفلي، ولكن لا بأس، فسوغ أظل حوله أباركه وأرعاه، على الرغم من عدم رؤيته لي، سأظل بجانبه، هذا الرضيع هو أملي وأمل الأمة كلها.

كم كنت أخشى الموت وأشفق من الألم، ولكن لا ألم، فقط سعادة تفوق الوصف، كلها لحظات وأصل إلى الجنة، إلى الخلود، أنا لم أمت أيها السادة، فأنا شهيد، لو علم أهلي بحالي لما حزنوا لفراقي، أعلم أنهم سيصدمون، ولكن لا بأس، فهم يعلمون كم كنت أتوق للشهادة، إخواني.. أطلب منكم فقط

الدعاء والصلاة من أجل إنقاذ أسيراتنا في فلسطين، فهن نساء على أي حال، صلوا من أجل القدس والمسجد الأقصى، وفي النهاية أرغب في قول حكمة رائعة، أيها الإخوة إنها ميتة واحدة، فلتكن في سبيل الله.

إياد الفلسطيني

عندما اعتليت المسرح في تلك الليلة، كنت في حالة غريبة، كنت سعيدًا جدًا، لدرجة أنني كنت أشعر أنني أطير، و لم لا؟.. فقد كان آخر حفل لي، وبعدها سأعود إلى باريس للقاء نورا، كنت أغني وأنا أتمايل في طرب لم أشهده من قبل أبدًا، وما إن انتهيت وغادرت، حتى فوجئت بعشرات الصحفيين يسألونني عن إحساسي نتيجة اغتيال أخي.. وصدمت!!

اغتيال أخي؟ أي أخ؟ بحثت بعينيّ عن كمران، فوجدته قد اختفى، ذهبت إلى غرفتي لأجده منهارًا، يبكي في صمت، وسألته ماذا حدث، من الذي اغتيل.. ومن اغتاله؟

لم يرد علي، فقط أشار إلى جهاز التليفزيون، فرأيت أبشع مشهد يمكن أن يراه إنسان، هذه سيارة إياد شقيقي مهشّمة، وها هي أشلاؤه متناثرة هنا وهناك، ها هو ذراعه، الساعة التي أهديته إياها بمناسبة زواجه، وأصبعه يحمل دبلة زواجه، ها هو المصحف الذي يضعه دائمًا على قلبه، ممزق، وغارق في الدماء، الشباب يحملونه، أين وجهه؟ أريد أن أرى وجهه الباسم دائمًا، آه، هل هذا هو إياد؟ كمران..قل لي إن هذه الجثة ليست

لإياد...قل لي إن ذلك الأشقر الباسم لم تفتت جسده صواريخ الغدر! قل لي إن إياد لم يترك طفله الرضيع الذي لم يتعد السبعة أشهر يتيمًا بلا أب! قل لي إنه سيعود مرة ثانية ليجادلني بسبب حبي للمرآة، قل لي أي شيء سوى أنه غُدر، وراح بلا رجعة......أرجوك قل لي ماذا سأخبر ديما إذا سألتني أين إياد؟

احتضنني كمران في قوة، ليسيطر عليّ، ولكنني كنت كالثور الهائج، طلبت منه الذهاب لفلسطين لأدفن أخي، فلم أتصور أن يُدفن إياد دون أن أراه للمرة الأخيرة، ولكنه لم يوافق، بحجة أنني يجب أن أبقى بعيدًا.

يا الله ماذا سيفعل أبي إذا رأى هذا المشهد؟ سيموت حسرة بلا شك، وديما.. تلك المسكينة الجريحة التي ما إن ابتسمت لها الدنيا، حتى اتسعت الابتسامة لتكشّر عن أنياب وحش خرافي مفترس...عجزت عن التفكير!

لم أدر كيف عدت إلى بيتي بباريس، لأجد نورا في انتظاري، كانت ترتدي ملابس الحداد وقد انتفخت عيناها من أثر البكاء.

أمسكت بيدي لتواسيني، واحتضنت كمران الذي كان يبكي كطفل، كم أحسده على هذه الدموع.

وهاتفني أبي ليواسيني، وطالبني بأغنية أوجهها للسفلة، وأخبرهم أنه إذا مات إياد، فهناك مليون إياد آخر، يا له من رجل يتفتت كبده ويستكبر أن يقول آه!!

طلبت من كمران أن يحضر لي معه ديما والطفل، لكي أرعاهما بعد استشهاد أخي، ولكن ديما رفضت ترك فلسطين.

قضيت ثلاثة أيام نائمًا، لا أصحو ولا أعرف سببًا لهذا النوم الثقيل الذي كان يلفني، لم أكن أصحو أبدًا، إلى أن رأيته أخيرًا، باسما كالعادة، مرتديًا ثيابًا بيضاء، وعلى جبينه كُتبت الشهادتان، أمسك بيدي، فسألته في حزن: هل تألمت عند استشهادك؟ فأجاب بالنفي، وسألته: هل سئلت في القبر أسئلة صعبة؟ فأجاب بالنفي، ضغط على إحدى يديّ في شدة آلمتني، وتكلم بحديث لم أفهمه، فهمت منه فقط كلمة واحدة، هي اسم طفله مروان الصغير، كرر هذا الاسم عدة مرات، وكل مرة يزيد الضغط على يدي، ثم اختفى، صرخت مناديًا عليه: إياد...إياد..إياد..ولكنه لم يرد.

دخلت نورا الغرفة في سرعة، لتستفسر عن سبب صياحي، ووضعت يدها على رأسي، لتكتشف أنني محموم، فنادت على غسان الذي لم يتركها لحظة واحدة منذ حدث ما حدث، حرارتي المرتفعة جعلتني أهذي، كنت أتصوّر أن إياد لم يمت، فقد كان معي منذ لحظات، حتى إنه كاد يحطم لي راحة يدي، ونظر غسان إلى يدي ليرى أثرًا شديد الحُمرة!

بعد أن أفقت قليلاً، طلبت من غسان العودة إلى زوجته، فهو عندي منذ أكثر من ثلاثة أيام، ووافق على مضض، بينما جلست نورا بجانبي لتمرضني.

اتصلت الشركة المنتجة لألبوماتي، وطلبت مني عقد مؤتمر صحفي لأنفي أي صلة لأخي بالفصائل الفلسطينية المسلحة، كنت غارقًا في حزني، كلما أغمضت عيني تتراءى لي صورة أشلاء أخي المتناثرة، والشركة تطلب مني نفي صفة البطولة عن أخي الشهيد، كنت مريضًا، لذا تولّت نورا الرد بدلاً مني، لقد قالت لمالك الشركة إذا كان العمل الوطني والاستشهاد في سبيل الله عارًا في نظركم، فمروان لا يُشرّفه العمل معكم، وأغلقت السماعة في وجهه!

تلك المجنونة! إنني أعمل مع هذه الشركة منذ أكثر من عشر سنوات، لم أجرؤ على محادثتهم هكذا أبدًا،واتصل مدير الشركة بعد قليل ليعتذر، فصاحب الشركة لم يقصد ما فهمته نورا، هو فقط يريد أن يستغل الحدث في الترويج للألبوم الجديد الذي أطلقته الشركة في اليوم التالي للحادث، أين هو كمران ليتولى التفكير بدلاً مني، إنني عاجز عن التفكير تمامًا!!

اتصلت بي ديما بعد يومين، وطلبت مني طلبًا غريبًا، طلبت أن أعتني بالصغير مروان، في حال حدث لها مكروه، إنها تشعر أنها مستهدفة، فهي مشاغبة،ولابد أن الخطوة القادمة هي التخلص منها.

لم أكن في حالة تسمح لي بالحوار،كنت أريدها أن تأتي عندي هي والطفل،فأنا لن أتحمل صدمة أخرى،ولكنني رضخت لرغبتها في البقاء بفلسطين.

في إحدى الليالي كنت نائمًا، وأفقت على آلام شديدة لم أستطع تحملها، فقد انتهت قدرتي على التحمل، فصرخت في ألم، وهبّت نورا لترى ماذا حدث هذه المرة، طلبت منها إعطائي مسكنا قويا، ولكنه لم يفلح في تخفيف آلامي، جربت الحقن، لم تؤثر، حاولت الاتصال بغسان فلم تستطع، لم يكن أمامها سوى نقلي للمستشفى في جو ممطر عاصف في منتصف الليل، واستندت إليها، إلى أن وصلنا للسيارة التي قادتها إلى أقرب مستشفى (نورا التي أعرفها لا تستطيع قيادة دراجة حتّ) لم يكن هناك سبب طبي معروف لهذا الألم، لذا لم يرحمني منه سوى منوم قوي.

في اليوم التالي دخلت نورا لتحادثني، وأخبرتني أن الأطباء أخبروها أنني أعاني من حالة آلام هستيرية، نتيجة لكبت مشاعر الألم والحزن بداخلي، وطلبت مني أن أبكي، فالبكاء سيساعدني على إخراج ما بداخلي وسأستريح، إنها تطلب مني المستحيل.... أبكي؟ لا....لا........

اقتربت مني أكثر ووضعت رأسي على صدرها، وشجعتني، رائحتها تشبه رائحة جسد أمي، تذكرت عندما كنت صغيرًا، وكانت أمي تحتضنني، تصورت أنني صغير متعلق بصدر أمه، وانفجرت في البكاء ثلاث ساعات كاملة، أبكي وأنتحب على صدر نورا، إنه شعور جيد أن تخرج كل ما اختزنت من حزن ووجع طوال سنوات عمرك في صورة بكاء.

عندما هدأت، لم أتصور ما فعلت، لقد تحققت المعجزة، واستطاعت نورا بدفء أحاسيسها أن تجعلني أنسى (البرستيج) -كم أبغض هذا اللفظ- والشهرة وكل شيء، تذكرت فقط أنني شاب فقد أخاه المفضل في حادث مأساوي...وبدأتُ أتكيف مع مشاعر الغضب والغيظ وأسيطر عليها حتى أستطيع متابعة حياتي.. بعد فترة وأنا أحاول التأقلم مع عدم وجود إياد في حياتي، اتصل بي أحد قادة الفصيلة، ووعدني برد حاسم يُثلج صدري، في اليوم التالي سمعت بحدوث إطلاق صاروخي على إحدى المستوطنات، أجهز على سبعة، وجرح عددا كبيرا، استرحت قليلاً، وارتفعت معنوياتي، عندما جاءني أبي بصحبة كمران الذي طالت لحيته وشحب وجهه النحيل.

احتضنني أبي ليخفف عني.. يا الله! إنه شديد الحنان، لم أجد في صدره هذا الحنان من قبل، كنت أشعر بقلبه يتفتت داخل صدره، ألهذه الدرجة يتألم؟ كنت أظنه لا يأبه بنا، لأننا لسنا أبناء زينة، ولكنني اكتشفت أنني كنت مخطئا!..

في فجر أحد الأيام، أيقظتني نورا لتخبرني أن ثمة عملية استشهادية، قامت بها فتاة فلسطينية، كانت متنكرة في صورة صحفية عبرية، أسفرت عن مقتل خمسة عشر قتيلاً، منهم مسئول رفيع المستوى، وجرحت ما لا يقل عن أربعين آخرين.

وفتحت جهاز التليفزيون، وانضم إليّ كمران لنتابع تفاصيل العملية، ونعلم الجهة التي ستُعلن مسئوليتها عن الحادث، وطال

الوقت ونحن نتأمل القتلى والجرحى، وندعوا للشهيدة بالجنة، يا لها من فتاة شجاعة، فعلت ما يجبن الرجال عن فعله، كيف دخلت إلى هذا العمق، إنها عفريتة ولا شك!

مرت عدة ساعات، وبثت إحدى الفضائيات شريط فيديو، سجلته الاستشهادية قبل أن تنفذ العملية،يا إلهي.. إنها..........ديما !!!!!!

تلك المجنونة وقفت في جرأة لتخبر العدو أنها ستنتقم لأهلها وزوجها، ولكل شاب فلسطيني أريقت دماؤه الزكية بلا ثمن، وأن الفصائل الفلسطينية لن تهدأ حتى تطهر فلسطين من نجس العدو، وفتحت النيران على الخرس العربي إزاء ما يحدث، قالت جملة أعتقد أنها هزتني من الداخل كرجل، قالت "إذا كان الرجال في الوطن العربي قد تخلوا عن مهمتهم في حماية أراضيهم وأعراضهم، فإن النساء ستقمن بالمهمة، وإن ذنب ذلك الطفل اليتيم الذي حُرم من أبيه وأمه في رقاب كل العرب".

لن أعلّق على هذا الحديث، نقلته فقط لكي أوصل رسالتها، هل رأيتم ماذا يفعل القهر والظلم بالإنسان؟

لم أحزن لاستشهاد ديما، شعرت شعورا لا علاقة له بالحزن، لا أدري أهو غضب أم غيظ! أنا لا ألومها على تركها لمروان الصغير بلا أم ولا مأوى، وأنا أقدّر ما شعرت به، لقد أخبرني كمران أنها لم تلبس ملابس الحداد، و لم تذرف دمعة واحدة،

بل ضمت صغيرها إلى صدرها، وجلست كتمثال شمعي لا يتحرك ولا يأبه بما يحدث حوله من صراخ وأنين!

ما طغى عليّ في هذه اللحظات، هو مصير الصغير، فأنا لا أدري عنه أي شيء، ولا أعلم كيف أحصل عليه، اتصل كمران بأحد قادة الجناح السياسي للفصيلة في لبنان، وسأله عن الطفل، فوعده بالاستفسار عن مكانه.

مر يومان ولم يرد علينا أحد، كدت أجن خلال هذين اليومين، وأبي اتصل ليسأل عن حفيده، فأخبرته أنه عندي، حتى لا يأكل القلق قلبه، اتصلت أنا بالقائد العام للفصيلة واستفسرت عن سبب الصمت وعدم الرد والتجاهل التام لطلبنا، إلا أنه هدأني وأخبرني بأن الطفل غادر لبنان وسيصل إليّ في خلال ساعات.

ما إن أغلقت الهاتف، حتى دقّ جرس الباب، وفتحت سيلفيا لتجد إحدى الفتيات التي طلبت ملاقاتي، صرخت فيها، فأنا لست في حالة تسمح لي بلقاء الفتيات، إلا أن نورا ذهبت إليها، وبعد قليل جاءتني حاملة مفاجأة هزت كياني، إن الفتاة التي رفضت ملاقاتها هي من ستعمل معي مكان ديما، وهي تحمل مروان الصغير، طفل أخي الشهيد.

وبدون أن أكمل ارتداء ملابسي، خرجت لأخطف مروان وأضمه إلى صدري، إنه فتى وسيم، مبتسم تمامًا كوالده، لم أره من قبل سوى مرة واحدة بعد ولادته مباشرة، كان قزمًا

صغيرًا، ما إن حملته حتى صرخ وبكى، ولكنه الآن كبر وورث عني الشعر الأسود الغزير، وورث عن والده كل شيء، سوى أنه ليس أشقر، بعد أن هدأت وأخذت نورا الطفل لتحممه، جلست مع "جومانة"، إنها ابنة أحد الشهداء، قوية الشخصية، فتيات فلسطين اللائي ينضممن لصفوف المقاومة، لهن شخصية متكاملة، والمأساة أن كلهن جميلات، ما الذي يجعل فتاة جميلة مكتملة الأنوثة تنضم إلى فصيلة من هذه الفصائل، وغيرها من فتيات الوطن العربي يتزيّن في انتظار العريس؟ كانت تحمل لي رسالة من "ديما"، لم أستطع فضّها، فأعصابي لن تتحمل كلماتها النارية، فأجّلت هذه المسألة إلى أن تواتيني الشجاعة.

كانت الليلة الأولى لمروان معنا مأساة، إنه لا يطيق النظر إليّ، فهو يصرخ كلما رأى وجهي، رفض تناول الحليب، وأخذ يصرخ بلا سبب، لم ينم أحدنا في تلك الليلة، فالصغير يفتقد وجه أبيه ورائحة والدته، أخذته نورا لتتجول به في الخارج، وعادت به وهو مغمض العينين، كانت الأيام الأولى له معنا عذاب، فجميعنا لا نأكل ولا ننام، فقط مسخّرون لراحته، وعلى الرغم من ذلك، إمارات الغضب ما زالت ترتسم على وجهه.

تدريجيًا بدأ الصغير يعترف بوجودنا معه، فلم يعد يصرخ في وجهي، وتحولت عصبيته وصراخه الدائم إلى ابتسامات وضحكات، ورأيت في نورا جانبا جذبني، جانب الأم التي لا تتذمر أبدًا من المجهود المضني التي تبذله مع الصغير، تلاشت

عصبيتها، وتحولت كل طاقاتها للعناية بالصغير، والأهم أنها وافقت أخيرًا على تسجيل (الديو) معي!

حاولت الابتعاد عن الصحافة قدر الإمكان، فمنذ حادث إياد، لم أُدل بحديث صحفي، أو أجري مقابلة تليفزيونية، فأنا لا أريد الزج بنفسي في مشاكل لا أحتاجها.

لم أرد على أي سخافات، إلا عندما لهجت بعض الألسنة المسمومة بالتطاول على زوجة أخي الشهيد، وسبها على رسائل ال"SMS" التي تعرض على شاشات الفضائيات العربية، وعلى الرغم من رد كثير من الشباب على هذه الافتراءات، إلا أنني عقدت مؤتمرا صحفيا، لم أقل في هذا الموضوع سوى بضع كلمات "إنني أعتقد أن من أرسل تلك الرسائل ليس عربيًا، أيها السادة يكفي أنها تركت طفلا رضيعًا، وقدّمت نفسها قربانًا في محراب فلسطين الحبيبة".

سألني أحدهم:

– هل تشجع الشباب على القيام بعمليات استشهادية ضد إسرائيل؟

أنا أكره الحديث في السياسة، ولكنني قلت:

– من حق أي شعب محتل أن يدافع عن وطنه بالطريقة التي يراها ملائمة.

وسأل آخر:

- هل لك أي علاقة بالفصيلة المسلحة التي ينتمي إليها شقيقك البطل؟

ابتسمت ابتسامة واسعة لهذا السؤال، فقد فتح عليّ استشهاد أخي طاقة من الجحيم، فقد أخذ البعض يعقد المقارنات بين إياد وبيني، فإياد ذلك الشاب المكافح البطل، وأنا مجرد مطرب سخيف، وانبرت الأقلام تكتب عن مدى سخافتي وعدم انتمائي العربي، والدليل أنني أسكن باريس ولا أذهب للدول العربية سوى للحفلات، أو تسجيل أحد البرامج التي أتقاضى عليها مبالغ خيالية، أنفقها بالضرورة على التفاهات، وطبعًا لم أشأ تكذيبهم، وعلى الرغم من غيظي، إلا أنني رددت على الصحفي قائلاً:

- إنني مطرب، لا وقت لدي للسياسة، فالعائد المادي للطرب أكثر بكثير من العائد المادي للسياسة.

بعد يومين فوجئت بقرار منعي من دخول أمريكا، والسبب أنني شقيق لإرهابي، لم أغضب، ولكنني شعرت ببوادر الإنفلونزا تجتاح جسدي كالإعصار، لازمت إثرها الفراش، وفي إحدى الليالي فوجئت بأصوات وطرق على الباب وأشياء غريبة، فقد كسرت الشرطة باب الشقة للقبض عليّ، بحجة أنني أخفي معلومات حول عمليات إرهابية، حيث اتهموني بأنني كنت أعلم بموعد أحد التفجيرات، وهناك تهمة أخرى، حيث يعتقدون أنني أحد المخططين لاعتداءات تمت في إحدى الدول

الأوربية، حمدت الله أن كمران لم يكن موجودًا، وإلا لكان قد أخرج سلاحه الذي لا يفارقه وصفّاهم جسديًا جميعًا، كنت مريضا جدًا في هذه الليلة، وكبل الضابط يدي وقرأ عليّ حقوقي كالمجرمين، وخرجت من المترل بالبيجامة، وحدثت مشادة كلامية حادة بين نورا والضابط، واقمته وبالظلم والعنصرية، ولحقت بي محضرة ثيابي ودوائي.

سارع الصحفيون بالتقاط صور المطرب المشهور وهو مكبل اليدين، ومقيد القدمين كالحيوانات، وسارع مئات المحامين للدفاع عني، وأصبحت قضية رأي عام، فأنا في نظر الجميع مطرب ولا علاقة لي بالإرهاب.

بعد عدة أيام قضيتها في مستشفى تابع للشرطة، أطلقوا سراحي، وعدت إلى المترل وقضيت فترة النقاهة تحت رعاية نورا، كانت تعاملني كأنني في عمر "مارو" يا الله! حنانها يدمر أعصابي! أعتقد أنني محظوظ، فقد وقف الحظ بجانبي كثيرًا، ويمكن أن يحدث موقف سيء من وجهة نظري، ولكنه يفيدني، فذلك الحدث كان سببا في تعاطف قطاع كبير من الجماهير العربية وحتى الأوربية معي.

أول مرة أواجه الجمهور بعد الحادث، كان في مهرجان عريق بإحدى الدول العربية، وما إن وقفت أمامه، حتى انحنيت لأحييه، فوقف الجمهور بالكامل، وطلب مني أحدهم الوقوف دقيقة حدادًا على أرواح شهداء فلسطين، وقدّم لي آخر الشال

الفلسطيني، لأضعه على كتفي، لقد ذكرني هذا الموقف بكل المواجع، ذكرني بإياد ومونيا وديما، وحتى مروان الصغير الذي اشتقت إليه، بمجرد أن أغلقت باب البيت خلفي.

صورت أغنية الدويتو التي سجلتها مع نورا، واستخدمت في التصوير إحدى الموديلز، كانت تصوّر مأساة شاب فلسطيني يفقد حبيبته، بعد هدم قوات الاحتلال بيتها وهي بداخله، إنها الفكرة التي أوحت إليّ بها نورا، مع بعض التعديلات.

ضرب هذا "الديو" الرومانسي على الجرح، في قوة تفاعل الجمهور مع صوتها الدافئ الحنون، وكانت سعيدة لرد الفعل، إلا أنها رفضت تكرار التجربة.

بدأت أتجاوز محنة أخي، وتوطدت علاقتي بمروان الصغير أو مارو كما كانت تدلله نورا، ذكرني بمونيا عندما كانت تناديني، كنت أحسد ذلك الفتى على كمّ التدليل الذي يحصل عليه، واللعب التي يمطره بها كمران، كنت أريد أن أشعر أنه يحبني كما يحب نورا وكمران، انفردتُ به في أحد المرات وجلست أخبره ببعض الحكايات السخيفة المضحكة، وكان يتفاعل مع هذه القصص، فيضحك عند المواقف المضحكة، وأنا معه شعرت بأنني بصحبة فتى يافع، أخذت أحفّظه اسمي حتى يستطيع مناداتي كما ينادي نورا، كان يناديها ب"ماما نووه"، وكمران كان يناديه ب"نان"، أما أنا فقد كان ينظر إليّ مبتسمًا ولا ينطق اسمي أبدًا.

لقد كنت أفرح بأن اليوم مرّ وانتهى حتى يكبر مروان يومًا آخر، كنت أراقبه وهو يخطو أولى خطواته في سعادة مفرطة، أولى خطواته كانت باتجاه نورا، كم أحسدها على حب هذا الصغير.

عرضتُ على نورا إحضار جليسة أطفال لتعاونها، إلا أنها رفضت، كما رفضت سابقًا، فهي لا تأتمن أحدا على صغيرها (هكذا كانت تدعوه)، كنت أحيانًا أخشى من تذكيرها بأنه ابن أخي، لأنها اندمجت في دور الأم المتفانية.

زادت محبة نورا في قلبي، وبدأ ذلك الشعور يراودني ثانية، فقد جمع مارو بيننا، وجعلنا نستكشف أنفسنا بصورة مختلفة، أظهر هذا الصبي أجمل ما بداخلنا، كنت أراقبها وهي تطعمه وتسقيه وتحممه وتلعب معه وتعاقبه (كان عقابه الوحيد أن يجلس معي بمفرده!)..

كان مارو مشاغبًا، فهو يتلذذ بعضّ سيلفيا، وصفع نورا، وجذب كمران من شاربه، ولكنه لم يكن يجرؤ أن يعبث معي.

كنت نائمًا ذات مرة، وجذبني من شعري ليوقظني، فأمسكت به من شعره لدرجة آلمته، ونلت يومها من التوبيخ ما جعلني أخجل من الخروج من غرفتي، فقد ذهب ذلك الجبان إلى نورا وأخبرها أن "وان" وأشار إلى شعره الأسود الطويل، إشارة تعني أنني جذبته منه!

قامت الدنيا و لم تقعد بالنسبة لنورا، واتصلت بكمران في العراق، لتخبره بما جنيت، وخاصمتني وخاصمني مارو ونعتني بكلمة "تافه" (هذه الكلمة الوحيدة والتي استطاع نطقها صحيحة بعد عام ونصف!)

لم أقصد إيلامه، إنه طفل، قصدت تعليمه فقط بأنها مسألة مؤلمة، أن تجذب أحدهم من شعره بهذه الطريقة وهو نائم!

لأكفر عن خطيئتي، أخذته لتتسوق سويًا، أحضرت له اللعب والهدايا حتى يرضى عني، واشتريت له مرآة، نكاية في إياد -رحمه الله- فقد رسبت لديه عقدة من المرآة بسبب كثرة تطلعي فيها، لم يكن إياد وسيمًا مثل مارو، لذا سيحتاج حتمًا إلى مرآه باهظة الثمن ليطمئن على جماله كل عدة ثوانٍ !

كنت أحمله على كتفي في الشارع، وكأنني أحمل تاجًا مرصعًا بأنفس الماسات على رأسي، فمارو جعلني أنسى البرستيج وكل شيء، تذكرت فقط أنني أعشق ذلك القزم، على الرغم من تحديه السافر لي، وعدم إقلاعه عن عادة جذبي من شعري وأنا نائم!

عندما يبدأ موسم الصيف، لا أجد وقتاً للتنفس، كانت الرحلة الأولى لكندا ثم أستراليا ومنها إلى بعض الدول العربية، وكان حضور الجمهور في كل هذه الحفلات مثيرا للدهشة، فقد حرصت الجماهير على تشجيعي بصورة مؤثرة.

أخذت مني التسجيلات وقتا طويلا، وسلّمت بعدها السي دي للشركة، وما إن انتهى الصيف حتى عدت إلى باريس لأقضي عدة أيام بصحبة مارو الذي ناداني ب"بابا" لأول مرة، بعد أن أحضرت له قطة بيضاء رائعة الجمال ليلعب معها، لا أدري لم استمتعت بهذه الكلمة، وكأنني قبلت ألف امرأة، كانت المرة الأولى، والمرة الأولى دائمًا ما تكون مميزة.

وعلى الرغم من ضيقي بهذه القطة التي ما كان يحلو لها النوم سوى بفراشي، لأصحو والشعر الأبيض اللامع يكسو ملابسي وشعري، إلا أنني لم أشأ أن أسلبه فرحته ونشوته، عندما يطاردها في أرجاء البيت ممسكًا بلعبة على شكل "R.B.G".

في صباح أحد الأيام، استيقظت مبكرًا، وتناولت إفطاري، وذهبت لألحق بكمران الذي سبقني على المكتب، وفي الطريق تذكرت أنني نسيت شيئًا مهمًا فعدت لآخذه، كان البيت هادئاً فمارو صاحب سيلفيا، وذهبا إلى السوق، ولابد أن نورا قد خرجت هي الأخرى.

في أثناء اقترابي من الغرفة، سمعت حركة بداخلها، فتسللت برفق، وقفت أمام الباب لأجد نورا تفتح خزانة ملابسي، وتلتقط كنزة من كنزاتي.

كدت أفقد الوعي، عندما تشممَتها في شوق ولهفة، وضمّتها إلى صدرها، ووضعت جنبها على فراشي، وأخذت تبكي في خفوت، وأنا أستمع إلى صوت بكائها في ذهول،

ترى ما الذي يبكيها؟ كنت أراقبها من بعيد، كدت أفاجئها وهي في هذه الحالة وأضبطها متلبسة باحتضان وسادتي وكترتي، كنت سعيدًا للحق، ولكنني لم أشأ أن أفرط في سعادتي حتى لا أصدم، فربما تكون نورا لا تحبني، ولكنها فقط مشتاقة لضمة رجل.

ذكرتني نورا -وهي بهذه الحالة- بأمي عندما كنت أفاجئها ليلاً وهي تبكي في فراشها وحيدة، كنت أسألها دائمًا عن سبب البكاء، فكانت تخبرني أن شيئاً ما قد طرف عينها، وكأن هذا الشيء يزورها يوميًا!

تمنيت أن تواتيني الشجاعة وأسألها ما يبكيك يا امرأة؟! ولكنني لم أجرؤ على الاقتراب، وعدت إلى مكتبي وأنا أكاد أفقد الوعي من شدة غضبي، عندما فوّت هذه الفرصة، وطلبت من كمران أن يأتي فورًا، ويترك كل ما في يده، جاء أخي على عجل، وسألني عما أصابني، فحكيت له كل ما رأيت، لا أدري من أين أتتني هذه الجرأة لأتكلم، فقد كنت أخجل من كمران، لكنني كنت في حالة غريبة، لا أدري كيف أتصرف، كان كمران يستمع إلي مبتسمًا، وبعد أن انتهيت، سألته عن سر الابتسامة التي لم تفارق شفتيه، فأخبرني أنه ولأول مرة منذ أكثر من ثلاثين عامًا، يكتشف أنني لست بمستوى الذكاء الذي يتصوره، قال بالحرف الواحد "أيها المسكين، هل هذه أول مرة تكتشف أن نورا تحبك؟" أجبت بالإيجاب، فتابع "أيها النجم الرومانسي الوسيم، إليك تلك القاعدة التي ربما تفيدك في

المستقبل: المرأة عندما تبالغ في كراهيتها لشيء ما، فهي بالضرورة مغرمة متولهة به، والقائد الحكيم هو من يعرف الوقت المناسب للهجوم، وأنت قد فوّت هذه الفرصة، أنت تتعذب وهي تتألم في صمت!!"

عرضت عليه أن أعود إليها، فعنّفني، وأمرني ألا أقف موقف المدافع أبدًا، فيجب أن أقف دائمًا موقف المهاجم، ولكن بهدوء ورويّة؛ لأن الحصون لا تُدك دُفعة واحدة..كنت جالسًا أحاول السيطرة على نفسي بصعوبة، كنت أمثّل الصبر خجلاً فقط من كمران، وأنا في الحقيقة، كدت أترك مكتبي وأطير إليها، لأضمها إلى صدري وأبثها أشواقي.. كنت أحاول بكل طريقة ألا أبدو متلهفًا أمام كمران الذي ابتسم في خبث، وقال إنه لو كان مكاني لما استمع لنصائحه هو ذاته، ولما جلس في المكتب لحظة واحدة، ولكنني أختلف عنه.. دمعت عيناي رغما عني، وأنا أتذكر إياد، فهو من كان يختص بكتم أسراري العاطفية، فربت كتفي في حنان غامر، على الرغم من دهشته الشديدة من وجود هذه الدمعة، وجدت نفسي أبكي بصورة طبيعية، قال كمران في تأثر إن إياد انتقل إلى رحمة الله، ولكنه خلّف لنا إيادا آخر، فمارو ما هو إلا نسخة من والده الشهيد، وعندما أحتضنه، أشعر بالفعل كأنني أحتضن إياد، لذا فهو دائمًا دائمًا بين أحضاني.

إنني أشعر بشعور مختلف تمامًا عن الأيام السابقة، أشعر بسعادة غامرة، كل خلية بجسدي تملؤها فرحة حقيقية، عندما

عدت إلى البيت شعرت -ولأول مرة في حياتي- أن قدميّ فارقتا الأرض، وأن نسائم من الجنة تدغدغ وجهي في خفة ورقة، ثبت عينيّ عليها، فوجدت تلك اللوعة ما زالت في عينيها المتعبتين من أثر البكاء، كدت أحملها من على الأرض، لولا أنني سمعت صوت كمران من خلفي يأمر سيلفيا بإعداد العشاء.

اتصلت بي ريماس رامي، بحجة أن هناك "أوبريت" غنائيا عُرض عليها، وأنها ترغب في عرضه عليّ لأشاركها فيه، وأن عائد حفلات "الأوبريت" سيذهب لصالح أطفال فلسطين، أكره صوتها، ولكني قررت أن أمنحها فرصة أخيرة.

طارت ريماس إلى باريس، وزارتني في بيتي، وأعدت لها نورا عشاء فخمًا، وعرضت عليّ اللحن والكلمات، كلمات رائعة ولحن خلاب..ولكن صوتها...! لا بأس، اللحن ملائم لطبقات صوت ريماس المنخفضة، والأروع أنه لن يظهر عيوب صوتها الكثيرة، ووافقت على التعاون معها، خصوصاً وأن "الأوبريت" سيضم عددا غيرها من المطربات.

سجلنا أغاني "الأوبريت" في باريس، واحتفلت ريماس معي في منزلي بهذه المناسبة، وفكرت أن أثير جنون نورا تلك الليلة، فظللت طوال الليل أراقص ريماس، وأنا أراقب بطرف عيني نظرة الغيرة في عيون نورا، إلى أن تركت الحفل ودخلت غرفتها.

ما إن انتهى الحفل وغادر الجميع، حتى أشار لي كمران أن أدخل لنورا، فهي في غير حالتها الطبيعية.

دخلت إليها لأجدها جالسة في فراشها، وعلى ركبتيها ينام مارو (كم أحسد ذلك الصغير!) وقد أغرقت الدموع وجهها، وضعت مارو إلى جانبها، وغطته في عناية، ثم مسحت دموعها لتواجهني، ضعفها يثير أعصابي، فلم أرها بهذا الضعف من قبل، سألتها عن سبب انسحابها من الحفل مبكرًا، فتعللت بمارو وموعد نومه، سألتها عن سبب دموعها، صمتت.. ولم ترد، فقط طأطأت رأسها ولم تنطق، كلمتها في همس فقلت:

- نورا..إنتي الفترة اللي فاتت ما كنتيش طبيعية أبدًا، مالك.. فيه حاجة مضايقاكي؟ أنا عملت لك حاجة؟

هزت رأسها نافية فقلت:

- كمران؟ سيلفيا؟ مارو؟

لم تنطق، فقررت الدخول في الموضوع مباشرة، سألتها في همس:

- نورا ممكن أسألك سؤال شخصي شويّة؟

- اتفضل.

الهجوم في مثل هذه الحالات مفيد للغاية، سألتها:

- إنت شكلك بتمرّي بأزمة.. نورا إنتي في حالة حب؟

شحب وجهها، ولكنها صمتت، ومعنى الصمت هو الإيجاب، طلبت منها مصارحتي، فهي صديقتي وأنا مهتم للأمر، صمتت وطال صمتها، ضغطت برقة:

-طيب المحظوظ ده موجود هنا في باريس؟

أشارت إشارة تعني أنه كذلك، وفي محاولة مني لمحاصرتها سألتها:

- عربي؟

أشارت بعينيها أن نعم.

- وسيم؟

ردت لأول مرة:

- أجمل إنسان شافته عيني.

يا لها من متبجحة! كاد قلبي يسقط بين قدميّ، عندما سألتها:

- هو ساكن معاكي في نفس البيت؟

- أيوه.

سقط قلبي بالفعل هذه المرة وسألتها:

- بيشتغل إيه؟ مطرب؟

تنهدت تنهيدة حارة وبعد صمت طويل قالت:

- أيوه.

بادرتها في سرعة:

- نورا.. بليز ردي عليا.

بعد صمت طويل، قالت وعيناي متعلقتان بشفتيها:

- أيوه، بس حبيبي يا مروان قريب وبعيد في نفس الوقت، زي الشمس نورها بينوّر لي حياتي، وأشعتها بتدفيني، بس ما

أقدرش أوصل لها لأنها بعيدة، زي القمر نوره بيسعدني بس مستحيل، زي النجم اللي بيزيّن سمايا بس مش ملكي، القمر والشمس والنجوم مش ملك شخص واحد يا مروان، دول ملك الناس كلهم، لو طلبت إنها تكون ملكي وحدي أبقى مجنونة.

إنها لا تدري أن القمر الذي يضيء للناس طريقهم، هو نفسه مظلم، ويحتاج لمن يُنير ظلام حياته، صمت وطال صمتي وأنا أتلذذ بجعلها تنتظر رد فعلي، كم تمتعت بالنظر إلى عينيها وهي تتأملني لتستشف رد فعلي، كانت عيناها تنظران إليّ في تساؤل عن إحساسي تجاه ما أخبرتني به للتو، وندم ربما لأنها صارحتني بما تشعر، وأنا أمثل الاندهاش والذهول (إنني ممثل جيد)، وأردت أن أريحها، ولكن أبى الغرور بداخلي إلا أن يتأكد من صدق مشاعرها، سألتها:

- من إمتى حسيتي إنك بتحبيه؟

- من يوم ما أنقذني من الغرق،ثم التفتت إلي وقالت: فاكر يا مروان؟

آه،شعرت بالدوار فأغمضت عينيّ، مر وقت طويل إلى أن سألتني أن أنسى كل ما قالته، فهو مجرد فضفضة، وهي لا تريد شغلي بمشاكلها الخاصة.

حاولت تعذيبها أكثر وأكثر، إلا أن لساني وشى بي هذه المرة، وأخبرها بما أردت إخفاءه "سيدتي، إنني مغرم بك حتى

الموت، مذ وقعت عيناي عليك أول مرة بالمستشفى، هذه هي الحقيقة التي كنت أحاول ألا أواجه بها نفسي، إني مذبوح فيك، كل لحظة اشتقت إليّ فيها عانيت مثلها عشرات الأضعاف، إن كل أغنياتي التي غنيتها مذ تعرفت بك، كانت موجّهة إليك أنت، فقط أنت........هل تشعرين بي؟ إن قلبي يكاد يقفز من صدري ليحتويك بداخله".

أحببت نظرتها التي عبرت عن كمية كبيرة من الدهشة، وأخبرتني أنها لم تتصور أبداً أنني أبادلها المشاعر، أو حتى أهتم لأمرها، سألتها لِم لَم تخبرني عن إحساسها بي من قبل، فقالت:

- فيه أسباب كتيرة، أولها إني ما كنتش عارفة إيه هيكون رد فعلك، ثانيا أنا مليش أي حق إني أحب إنسان لأني ما أعرفش إذا كنت مرتبطة ولا لأ، بس اللي عارفاه كويس، إن كان فيه راجل في حياتي، حبي ليك يا مروان حب من غير أمل، حب نهايته أسوأ من الموت.

بادرتها في سرعة:

-نورا، مين قال لك إن جوازك مني هيكون قرار أسوأ من الموت؟

لا أدري كيف نطقت بها، أتزوجها؟ هل أنا مجنون؟ أنا أحبها ولكنني أبدًا لن أتزوجها، إنني نجم شهير وهي....هي.. لا شيء، لا اسم ولا تاريخ ولا مركز، نفضت من رأسي هذا التفكير الطبقي، الذي يذكرني بأحمد مظهر في فيلم"الأيدي

الناعمة"، عندما استنكر على ابنته أن تحب شابا من عامة الشعب، وهو نفسه غارق في حب فتاة عادية!

أفق أيها النجم الشهير، عاد إليّ عقلي، فهي تحبني وأنا مُدلّه في غرامها.. فلم لا أتزوجها؟

ردت عليّ بعد تفكير طويل قائلة:

– ما ينفعش نتجوز، أنا ما أعرفش أنا مين ومليش وصي، وفي نظر القانون فاقدة الأهلية، يعني لو اتجوزنا هيبقى جوازنا باطل، وبعدين إنت سوبر ستار كبير، عايز واحدة في مستواك، مش واحدة نكرة.

ثرت عندما تفوهت بهذه السخافات، فهي من وجهة نظري أجمل وأرق من أي مخلوقة في هذا العالم، يكفي أنها امتلكت قلبي وكل مشاعري.

أمسكت بيدها وقبلتها، فقالت في رفق:

– بليز يا مروان، بلاش.

– ليه؟سألت في شوق.

– مروان، معظم النار من مستصغر الشرر.

ابتسمت ولم آبه بهذه الحكم التي قالها شخص لا يعاني من أي مشاكل على الأرجح، اقتربت أكثر لأضمها إلى صدري، ولكنها رفضت في إصرار، وقالت في تصميم:

- أرجوك بلاش، خلي علاقتنا بريئة عشان ما نخدش من ذكرياتنا سوا.

قلت وقد اندمجت في دور العاشق المحروم:

- إنتي مش بتحبيني؟

- بحبك طبعًا.

- أوكي، اثبتي لي.

- مروان إنت فهمتني غلط، مش معنى إني بحبك إني أتنازل ن كرامتي، الحب منبعه الروح مش الجسد، البعد بيزود الحب، القرب يا حبيبي بيقتله.

تلك الفيلسوفة! إنني أتلوى شوقًا إليها، وعلى الرغم من ذلك لا أستطيع مجادلتها!

ولكنني أسام المنطق، إن أعنف الثورات تشتعل بداخلي، لن أفكر فيما سيحدث بعد ذلك، قلت في محاولة لجعلها تشفق عليّ وتتنازل قليلاً:

- ملكتي إنني مذبوح شوقًا للمسة واحدة من يدك.

صدتني في قوة، ولكن لا بأس، سأطاردها إلى أن تستسلم (كنت أدعو الله جاهدًا ألا تستسلم لي)، حاولت مباغتتها وكدت أنجح، لولا أن مارو استيقظ مذعورًا وصرخ في فزع، ذلك البغيض كدت أخنقه وهي تحتضنه وتقبله في حنان، لتجعله يطمئن ويكمل نومه.

تركتها وذهبت إلى غرفتي في محاولة يائسة للنوم، ولكنني لم أستطع، كيف أنام بعد كل ما سمعت منها، وجدت نفسي أسترجع كل كلمة،وأضحك بجنون،إنها تعشقني،لقد رأيت الحب ملء مقلتيها، كيف أنام وهي لا تبعد عني سوى خطوات، ولكنها خطوات مستحيلة.

في صباح اليوم التالي وفي أثناء الإفطار، لم تستطع تناول إفطارها نتيجة تركيزي الكامل عليها، كانت خجلة لحد كبير، وكم أحب المرأة الخجول، فالخجل جزء لا يتجزأ من الأنوثة.

حكيت لكمران ما حدث بالتفصيل، وطلبت منه حلا؛ لأنني لن أتحمل أن أظل معها في بيت واحد وأنا أعلم أنها مشتاقة إلي وأنا مذبوح فيها، سألته عن طريقة شرعية للزواج بها، بعيدًا عن كل تلك المشكلات، فعرض على نشر إعلانات على شبكة الإنترنت، ورصد جائزة مادية كبيرة لمن يدلي بأي معلومات عنها، وعرضنا الفكرة على نورا التي ترددت، ثم وافقت، ففي حالتها تلك، الزواج من غير وصي هو رابع المستحيلات الثلاثة.. مر أسبوع واثنان، ولم يحدث جديد، كنت أنتظر أن يظهر أحد أقاربها على أحر من الجمر، وتعلمت من مارو لعبة المطاردة، فقد كنت أطارد نورا في أرجاء البيت، كما يطارد مارو قطته، أملاً في الحصول على قُبلة أو حتى لمسة.

وفي أحد الأيام ذهب مارو لعمه كمران، واشتكاني إليه، وأخبره أنني أقبّل نورا، كان ذلك في حضورنا جميعًا، وكنت في

موقف حرج، فقد تصورت أنه سيطبق يديه على رقبتي ليقتلني جراء ما فعلت، وكدت أكذب مارو، لولا أن كمران خذله قائلاً "حبيب بيبوس حبيبه شعليك إنت؟"

ذهلت نورا عندما صرح كمران بذلك التصريح، فهو بذلك يعطيني الضوء الأخضر لكي أفعل ما أريد، ولكن نظرة الفزع في عينيها جعلتني أتعهد لها على انفراد -فيما بعد- بأنني لن أفعل ذلك ثانية إكرامًا لعينيها.

في مساء أحد الأيام وفي أثناء وجودي في أستوديو التسجيل، رنّ هاتفي لأجد جومانة تحدثني وتطلب لقائي، وما إن قابلتها، حتى طلبت مني أن أكون حذراً في الفترة القادمة، وألا أقوم بأي فعل غير عادي، لأن هناك شكوكا بأن جهة ما قد اكتشفت أمري، وأن هناك تعليمات جديدة ينبغي التقيد بها، وطلبت مني إرسال شخص آخر موثوق به تمام الثقة، لكي يتسلم التعليمات الجديدة، ويقوم بعملية تحويل الأموال، شخص جديد تمامًا لا أحد يعرفه أو يشك به..

كان موقفًا صعبًا، فكل من أثق بهم وجوه معروفة، وطال تفكيري إلى أن وجدت أن نورا هي أنسب من يقوم بهذه العملية، على الرغم من رفض كمران للفكرة، فهو لا يأمن النساء من جهة، ومن جهة أخرى، أنه يمكن أن تكون هذه العملية البسيطة خطرا عليها.

وجدت صعوبة في أن أطلب من نورا مثل هذا الطلب، فأنا لا أريد أن أستغلها، ولكنني أمرّ بمشكلة وهي حبيبتي وموضع

ثقتي، طلبت الخروج معها لتناول عشاء رومانسي، وحكيت لها بصورة مختصرة عما أرغب به، لم تكن تصدق ما أخبرها به، فقد كانت لوقت قريب تعلم مارو كيف ينطق كلمة "تافه" بصورة صحيحة، لينعتني بها هو الآخر، صمتت لفترة، تصورت أنها ستثور في وجهي لأنني أستغلها في مثل هذه العمليات، إلا أنها لم تثر، ولم تنطق، فقط طلبت مني العودة إلى البيت، خيبت أملي طوال الطريق، وأنا أحدث نفسي قائلاً إنني أحب امرأة جبانة وكم ندمت على محادثتها.

عندما عدنا إلى البيت، غيّرت ملابسها واسترخت قليلاً ثم طلبت لقائي، فأذنت لها، أتت إليّ ولم تتكلم كثيرًا، فقط قبّلتني في جبيني وقالت إن هذا الجبين لا يستحق سوى أن يكلل بالغار، كانت متحمسة لدرجة أنها قالت إنه لو طلب منها أن تقوم بعملية استشهادية، فهي لن تتردد لحظة واحدة، فجل أملها في هذه الدنيا أن يعيش صغيرها "مارو" في وطنه معززًا مكرمًا.

تعجبني عندما تتحمس فتثير فيّ كل أحاسيسي، أخذتها من يدها لأحكي لها التفاصيل ومكان لقائها بجومانة، وكيفية التخفي، علمتها كل شيء، وقامت بالعملية بنجاح، إنها رائعة، عادت إليّ كأنما كانت غائبة عني لسنوات.

أحب في نورا طيبتها وضعفها، وفي نفس الوقت شراستها وقسوتها، حماسها وجبنها، كل المتناقضات في شخصيتها تثير إعجابي، لم أر في حياتي امرأة بهذا التواضع، وفي نفس الوقت

بذلك الكبرياء والشموخ، أحب كل صفاتها، حتى عيوبها، اندفاعها وتهورها وجنونها........أحبها.

طال انتظاري وأنا أتوقع نتيجة الإعلانات المنشورة على الإنترنت، والنتيجة سلبية، لم يستطع أحد التعرف عليها، كنت أعد الثواني لأرى نتيجتها، كان الهاتف عندما يدّق، أعتقد على الفور أنه شخص استطاع التعرف إليها، ليقرّب الأمد الذي طال.

كانت أسعد أيام حياتي تلك التي أعيشها معها، كانت متعة النظر إلى عينيها لا توازيها متعة، ومتعة الاستماع إلى حديثها تتصاغر أمامها كل ملذات الدنيا، حبي لها يصورها لي ملكة النساء ترتدي ثوب العفّة، وتضع على رأسها تاج الشرف، وتكحّل عينيها بكحل الحياء، وتصبغ شفتيها بصبغة الرقة والصدق.

عُرض عليّ سيناريو فيلم لكاتبة شابة، يتحدث عن الوضع في فلسطين، ويدافع عن العمليات الاستشهادية كحق للإخوة الفلسطينيين، أعجبت بالفكرة جدًا، وأخذت رأي كمران الذي رفض مشاركتي أنا بالذات في هذا الفيلم، فهناك شكوك حولي، وربما يجعلني هذا الفيلم كمن يرتدي الثوب الأحمر أمام ثور هائج، استطاعت نورا إقناع كمران أن للفيلم قيمة اجتماعية وفنية كبيرة، وسيضيف إلى رصيدي الفني بالتأكيد.

لقد دخلت عالم الفن منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا، عرضت عليّ خلالها عشرات السيناريوهات، ورفضتها لأنني لم

أجد نفسي في أي من هذه الشخصيات، ولكن بطل هذا الفيلم شبيه إلى حد كبير بشخصيتي الحقيقية، يحكي الفيلم قصة شاب فلسطيني بسيط مسالم، يعمل طبيبا في أحد المستشفيات، وفي إحدى الغارات تؤسر زوجته ويقتل طفله، وعندئذ لا يجد أمامه وسيلة للتحرر، سوى بالجهاد ضد المحتل.

وبدأ التحضير للفيلم، من حفظ للدور وبروفات، واستغرق التصوير نحو الثلاثة أشهر، كانت نورا تساندني بكل قوتها، فتحضر معي التصوير ومعها مارو، وتعمل على راحتي بكل وسيلة.

انتهى التصوير وبدأت فترة الاستجمام، وأخذت نورا وكمران ومارو إلى رحلة بحرية، إنني أعشق البحر، أحب لحظة الغروب بما توحي به من فراق وألم وحزن، ولكنني هذه المرة كنت أتحداها بوجود نورا معي، إنني بجوار كل مَن أحب فلِم الخوف؟ كنا نجلس سويا نراقب الشمس وهي تحتضر، فأشعر أنني امتلكت الدنيا بمن فيها، لم يكن يؤرقني سوى أنني لا أستطيع الاقتراب منها، فهي كالقلعة المنيعة، تحذرني دائمًا من تصرف غير مسئول، كنت فقط أفكر في حملها على النزول إلى الماء، ليحدث ما حدث سابقاً، كثيرًا ما تنتابني أفكار شريرة تجاهها، ولكني وعدتها ألا أضايقها.

عدنا إلى باريس وقد تجدد نشاطي وشعرت بالاسترخاء، وقررت تأجيل بعض تسجيلات ألبومي القادم إلى وقت لاحق، فأنا ما زلت مجهدا من فرط الضغط في العمل.

لم يعكر صفوي سوى مارو، فقد ارتفعت حرارته لدرجة كبيرة، ولم يكف ثانية عن الصراخ، أعطيته بعض الأدوية، ولكنه لم يتحسن، وفوجئت به يفقد الوعي.

كادت روحي تفارقني وأنا أقود السيارة بأقصى سرعة كالمجنون إلى المستشفى، ونورا تبكي وهي تضمه إلى صدرها، إن وجود طفل في حياتي أمر رائع، ولكنه متعب عاطفيًا، يصبح المرء تحت رحمة هذا الطفل، بشعر بالسعادة إذا ابتسم، ويذعر إذا خدش، إنني أضعف أمام هذا الفتى ضعفا غريبا.

فارقتني روحي بالفعل عندما أخبرني الطبيب أن مارو يعاني من حمى تيفودية، وأنه في خطر، وانهارت نورا تماما، فهو طفل ضعيف، كيف سيتحمل كل هذا الأدوية والآلام؟ وأمسكت بيديها لأواسيها، ولا أعلم كيف وضعت ذراعيها على عنقي وطوقتني وظلت تبكي، كنت متألما لمرض مارو، ولكنني كنت مستمتعًا جدًا لدرجة أنني تمنيت أن تظل تبكي على ذراعي للأبد.

ظل مارو بالمستشفى عدة أيام، كانت نورا مقيمة معه إقامة كاملة، وكنت أنا وكمران نتناوب الإشراف عليها، حتى كادت تموت بسبب عدم الحصول على قسط من الراحة، إلى أن شُفي وتحسّنت حالته.

أكملتُ تسجيلات الألبوم الجديد وسلمته للشركة المنتجة، وسافرت لبنان لأشارك في حفل توقيع الألبوم، وطلبتُ من نورا

أن ترابط أمام شاشة التليفزيون ليلة الحفل، وأن تسجل كل شيء لنستمع إليها سويًا.

كان الحفل ممتعًا، فالمذيعة صديقة لبنانية رائعة الجمال، ذكية ومثقفة، لم أُجر معها حوارا طوال مسيرتي الفنية، إلا وارتدت ثوبا من اللون الأحمر القاني الذي يخدّر الأعصاب (جميع المذيعات اللاتي التقيت هن في حوارات تليفزيونية كن يرتدين اللون الأحمرّ)، وإلى الآن لا أعلم السبب!

في البداية بادرتني بسؤال تقليدي:

-مروان إنت الليلة معنا لا توقع على الألبوم رقم ١٣، بعد رحلة فنية دامت خمستاشر سني، شو هي المفاجأة ياللي جهزتا لا جمهورك؟

- الأول عايز أحييكي يا نادين، وأحيي كل الشباب الموجودين معانا في الأستوديو، وكل الجمهور اللي بيحضرنا الليلة، الألبوم الجديد إن شاء الله هيكون مختلف تمامًا عن الألبومات اللي فاتت، لأول مرة بغني القصيدة، وهي لون فني أول مرة أتجرأ وأغنيه، لأنها عايزة إمكانيات كبيرة وإحساس مُضاعَف، وفيه كمان أغنية وطنية، وفيه أغاني رومانسية، وفيه أغاني بعتبرها إحياء للروح الشرقية في الأغاني، أغاني طربية بالدرجة الأولى، إن شاء الله يعجبكم.

- بالنسبة لا القصيدة.. كيف انتقيت كلماها.. أنا سمعتا بالبروفات.. ما بعرف ليش حسيت إني تركت الأرض وطلعت

بالسما.. كلمات رقيقة ولحن راقي... وكمانه أداء ناعم، شو هي قصة ها لقصيدة يا مروان؟

ابتسمت عندما سمعت تعليقها، وقلت حاكياً:

– عرض عليا ملحن كبير القصيدة، وهي لشاعر غنائي شاب، الجو العام للقصيدة سحرني، لقيتني دخلت فورًا في الجو النفسي اللي بتتكلم عنه الأغنية، ودي حاجة مش سهل إنها تحصل بسرعة، خصوصًا إن كلماتها شوية صعبة.

– سمعت إنه إنت بعد ما سلمت الألبوم لا الشركة، كان بدك تسحبه مرة تانية لا تشيل هالقصيدة.

– دي مسألة الشركة اتعودت عليها، عشان كده بيتفهموا جدًا الحالة اللي بتحصل لي، بعد ما بسلم الألبوم، بتحصل لي حالة خوف غريبة ودايمًا أفكر أغيّر وأعدّل.

– معقول نجم كبير مثلك بيخاف لهالدرجي؟

– والله مش عارف إيه الحكاية، كل ما بنجح أكتر، بيزيد الخوف أكتر، المسئولية بتزيد والضغط بيزيد، بتبقى الفترة اللي قبل ما يصدر الألبوم فترة حرجة جدًا بالنسبة لي، ببقى على أعصابي، وأقول يا ترى الأغاني هتعجب الجمهور ولا لأ.

– مروان بدي فوت بموضوع شوي صعب من الوقت ياللي أعلنا فيه، إنه النجم مروان الوليد هوي ضيف هالحلقة، ووصلت لنا كتير إيميلات بتسأل عن قصته لا خيك إياد

خصوصًا إنك رفضت تحكي ها لموضوع من قبل، شو رأيك تحكي ولا لأ؟

أكره الحديث في هذا الموضوع بالذات، وظهرت على وجهي سحابة ألم سرعان ما انقشعت فأنا الليلة أحتفل، ولن أعكر صفو الحفل، قلت في بساطة:

-كل اللي أعرفه عن إياد إنه كان صحفي مشاغب، ما تخيلتش أبدًا إن يحصل له اللي حصل،بس أنا سعيد باستشهاده، والحمد لله تجاوزت مرحلة الرفض والألم.

- وديما زوجته لا إياد شو كانت علاقتك فيها؟

تلك المرأة تستدرجني:

- زي ما إنتِ قلتِ كانت زوجة أخويا الشهيد، وواحدة من أعز أصدقائي.

- التقيت فيها بعد استشهاد إياد؟

- لأ، ما كانتش في حالة تسمح بالكلام.

- شو كان رد فعلك لما عرفت إنه ديما نفذت عملية انتحارية؟

- استشهادية مش انتحارية.

- بعتذر منك يا مروان، يلا خبرني شو كان إحساسك؟ كانت مفاجأة بالنسبة لإلك؟

- مش مفاجأة كانت صدمة.

- كنت بتعرف إنه الست ديما رح تقوم فيها؟

-إطلاقًا، ديما من النوع المحب للحياة،بس كانت ما بتتكلمش كتير وماحدش يعرف إيه اللي بتفكر فيه.

- لو كانت ديما خبرتك كنت بتشجعها ولا بتقول لها لا؟

- مش عارف ما فكرتش في المسألة دي قبل كده.

- شو ما بدك تعطيني اليوم ولا معلومة؟

- اسألي أسئلة ممكن تتجاوب يا نادين...اسأليني السؤال بطريقة مباشرة.

ابتسمت في خبث، فقد فهمت ماذا تريد، ولكنني أردت إحراجها وقالت:

- أوكي ليك هالسؤال إنت بتأيد القيام بعمليات استشهادية؟

ابتسمت، فأنا أعلم مدى تأثير هذه الابتسامة على من أمامي، خصوصًا عندما أريد الهرب من سؤال محرج وقلت:

- مسألة مؤسفة لما شاب يروح يفجر نفسه وهو في عمر الشباب، بس لما يكون بيحاول يخدم وطنه ومعتقداته السياسية، وخصوصًا إن له حق، بتكون المسألة مبررة.

- مروان شو هي علاقتك بالتنظيم السياسي ياللي بينتمي له إياد خيك؟

- أنا مطرب يا نادين، مش معقول ليلة احتفالي بإطلاقي الألبوم، تسأليني سؤال زي ده؟

- ليش؟ شو فيه هالسؤال؟

-أنا مطرب يا نادين مش سياسي، مليش أي علاقة بالسياسة من قريب أو بعيد، حتى بطلت أسمع أخبار السياسة في العالم كله!

- ليش؟

- أعصابي ما بتتحملش التحضر والمدنية والديمقراطية بقصد القهر والإرهاب المقنع، وترويع الآمنين واغتصاب الأرض، والموت والدمار طبعًا.

- مروان بمناسبة الكلام عن السياسة، من مدي عقدت مؤتمر صحفي قلت فيه إنك عم تشتغل بالفن لأنه العائد المادي للفن أكبر من العائد المادي للسياسة، مروان خبرني الحقيقة وبعرفك صريح، إنت بتؤمن بنظرية الفن للفن ولا علاقتك بالفن أول عن آخر هي المنفعة المادية.

- سؤال إجابته بديهية جدًا، أنا سبت مهنتي الأصلية كطبيب عشان أولاً بحب الغنا، كانت هوايتي الأولى، وثانيا لأني عايز أعيش في مستوى مادي متميز، طبيعي إن تكون علاقتي بالفن منفعة متبادلة، أنا اديت الفن شبابي وحياتي، من الطبيعي إن يكون فيه مقابل للتنازلات دي، أنا عارف إن التصريح ده هيفتح عليا طاقات جهنم، بس مش ممكن أعيش

حياة مرهقة زي كده بدون مقابل، ليه نداري ونقول إننا ملايكة وإننا مش بنحب الفلوس؟ مين في الدنيا دي ممكن يستغنى عن الفلوس؟

- مروان سمعت إشاعات كتيرة، إنك كتير مبذّر، بتضيع كتير مصاري، صحيح هالخبرية؟

-لأ أنا ماسمعتش الإشاعة دي،أنا بس سمعت إني بخيل جدًا!

- شو رأيك بالجيل الجديد من المطربين؟

- ليه الإحراج ده؟ إنت عايزة تزعلي الناس مني ولا إيه؟ ما أقدرش أقول رأيي.

- لا بدك تقوله، إنت مطرب كبير ومن حق الناس عليك إنك تحكي بكل صراحة.

- أنا رأيي ملوش أهمية هيعمل إيه رأيي قدام أرقام التوزيع الخيالية؟

- إنت مطرب كبير، وإلك جمهورك ياللي بيحبك، والأكتر إنت رمز لا المشاعر الرقيقة الطاهرة النبيلة، اتكلمت عن الحب العذري، قلت في واحدة من غنياتك لا الحبيبة إنه ما بدك تلمسها بيكفي تشعر بوجودها هالدني،وهلأ بتظهر المحبوبة على شاشات التليفزيون شبه عريانة، شو بتقول لا الموديلز ياللي بيعملوا هيك؟

- صراحة سؤال محرج، بس المفروض الجميلة تعتني بجمالها وتحافظ عليه، أنا لو ماشي في الشارع وقابلتني بنت عريانة

هبص لها، بس مش هحترمها، لكن لو لبسها محترم أكيد عيني هتقدرها أكتر.

– خبرني بقى رأيك بالفن بالوقت الحالي.

– الفن في المرحلة دي وصل لدرجة كبيرة من التدهور، فيه مجموعة من مدعي الفن بيسيطروا دلوقتي على الساحة الفنية، أنا بطلت أسمع أغاني، شلت كاسيت السيارة بتاعتي والراديو عشان ما أسمعش السخافات اللي بتتذاع، مطربة لا صوت ولا إحساس ولا كلمات كل إمكانياتها في عالم الطرب هو جسمها..هو ده الفن؟ والمأساة إن الفضائيات بتخصص لهم مساحات كبيرة جدًا، وجيل الرواد ما بتتذاعش ولا أغنية من أغانيهم، لازم نفكر الناس بالطرب الأصيل، كده الفن هينتهي خلال سنة واحدة على الأكثر!

– إنت كتير مزعوج، قل لي بصراحة مين هوي السبب بهالعجأة؟

– شركات الإنتاج والفضائيات اللي بتبث الأغاني.

– إنت بتطالب إن يكون فيه رقابة على الأغاني؟

–أنا بنادي إن تكون فيه رقابة داخلية،رقابة الضمير والأخلاق، إحنا في أزمة مش هيحلها غير وقفة حاسمة قدام التقاليع الغربية، والأغاني المبتذلة، والأصوات البشعة.

– مروان بصراحة شو رأيك بريماس رامي؟

- ريماس صديقة عزيزة.

- إنت بتفهم قصدي، شو رأيك بصوتها؟

- إنتي عايزة توقعي بيني وبين ريماس؟

- هل ريماس تصلح إنها تكون مطربة برأيك؟

- لأ،ريماس مؤدية،وهي عارفة رأيي في صوتها، ومعترفة بكده، وده شيء عظيم إنك تكون عارف إمكانياتك.

- شو رأيك بالفيديو كليب الأخير، سمعت إنك طلبت منها تسحبه من الشركة.

- في الحقيقة لما شفت الفيديو كليب، حسيت إن مش دي ريماس اللي أعرفها، اتصلت بيها وعلقت على الكليب، وإن المفروض إنسانة بمستوى جمالها ما تعملش في نفسها كده، فاعتذرت واستجابت، وسمعت إنها صورت فيديو كليب تاني على حسابها، دي لفتة جميلة جدًا منها.

- سمعت إشاعة إنه فيه علاقة عاطفية بيناتكن، صحيح؟

- لأ.

- بمقابلة معها سألتها عن مواصفات فتى أحلامها، خبرتني إنه بدها شخص مثل شخصية مروان وليد شو رأيك؟

- ميرسي يا ريماس إن شاء لله ربنا يبعت لك اللي تستحقيه.

- بدي أسألك سؤال خاص جدًا، في أسألك عن حياتك الخاصة؟

وجدت نفسي أبتسم بدون أن أستطيع التحكم في سعة الابتسامة فقلت:

- شو بدك مني نادين؟!

ابتسمت نادين وقالت:

- شو؟ الليلة ما رح أختم الحلقة إلا لما تجاوبني.

- سؤال واحد بس، اتفضلي.

- كل أغنياتك فيهن إحساس، بس الفترة الماضية هالإحساس صار أوضح وأقوى، رح إسألك سؤال مباشر، مروان إنت مغروم؟

- سألتيني السؤال ده قبل كده وقلت لك أيوه.

- هيدا كان من شي سبع سنين، بعدها قلت إنك بعد ما لقيت الحبيبة ياللي بخيالك، يعني كنت عم بتضحك علي، هالمرة ما بخليك تكررها، اعترف لقيتها ولا بعد؟

تلك الخبيثة! لقد حاصرتني، سأسلّم، ولكن تسليم المنتصر، لا أعلم لماذا كنت أريد أن أخبر العالم كله بأنني أحب نورا، في الليلة التي اعترفت لي بحبها، كدت أوقظ باريس بالكامل لأخبر سكانها أنني أحبها!

-لأ لقيتها واسمحي لي أوجه لها تحية كتير كبيرة هي أكيد بتسمعنا دلوقتي.

- مروان، شو طالع على بالك تخبرها هلأ؟

سعدت بمقاطعتها لي، وأغمضت عيني في حركة مثيرة، وقلت:

- أنا عايز أقول لها، تقبلي تتجوزيني؟

ابتسمت ابتسامة مدلهة، لقد أعلنت حبي لها على الملأ، وطلبت منها الزواج على الملأ، في سابقة لم تحدث من قبل في برنامج تليفزيوني، عندما نطقتها تعالت الهتافات والصيحات من الشباب بالأستوديو، فمروان الأعزب الشهير يريد أن يدخل بقدميه القفص الذهبي، ويتوسّل لحبيبته أن توافق على الاقتران به!

عدت إلى باريس وأنا في حالة من الشوق القاتل، لم يعد لدي قدر مدخر من الصبر، كانت تنصحني بالصبر وأنا أعلم أنها تحترق بلهيب الاشتياق إليّ، وطبعًا وبختني على قدر التبجح الهائل الذي تحليت به عندما طلبت يدها على الهواء مباشرة، لقد غامرت بحب معجباتي من أجلها، وها هي توبخني، ولكنه توبيخ فيه تدلل مثير!

في أحد الأيام طلبت من كمران الذهاب إلى المكتب، لينهي بعض الأعمال المعلقة، وتخلصت من سيلفيا ومارو ذلك المزعج الذي لا يسمح لي بالانفراد بها، ولو للحظة واحدة.

كان الانفراد بها حلما أوشكت على تحقيقه...كانت نائمة، تعمدت إحداث كثير من الضوضاء لتفيق.

أفاقت من نومها مذعورة، وخرجت لتسألني ماذا حدث، فأخبرتها أن هناك مشكلة ما في جهاز التليفزيون، حيث يرتفع صوته بلا مبرر منطقي.

أمسكت بالريموت من يدي وأغلقت التليفزيون وقالت "بيتقفل كده يا مروان".

همت بالدخول إلى غرفتها، فاعترضت طريقها، وطلبت منها محادثتي، فاستأذنت فقط لأخذ حمام دافئ.

بعد دقائق أتت وقد بدلت ثيابها وتزينت وتعطرت، يا للنساء!

حادثتها كثيرًا على أمل أن تتعطف عليّ، إلا أنها ما زالت متعنتة، ولكنني لن أيأس، لن أضيع عناء الانفراد بها، بادرتها قائلاً:

- نورا اسمه إيه البرفان اللي بتستعمليه؟

- أورجانزا.

- أو، مثير!

نظرت إليّ نظرة ذات مغزى وقالت:

- إيه هو اللي أو مثير؟

- البرفان طبعًا، ولا تسريحة شعرك أووف اللوك بتاعك كله هايل.

نظرت إلى القمر فتبعتني نظراها، وأخذت أقارن بين القمر الذي تحجبه السحابة وبينها، ترتدي ثوبًا أبيض يشف عن نور كنور القمر، فتظهر كتلك الغمامة التي تدثر القمر، تبتسم عيناها ناظرة إليه، فأشعر أن ابتسامتها تأسر ضوءه الخَجِل، إن تلك الحورية لا يجدر بها العيش هنا، لا يليق بها سوى سطح القمر، وهناك سأتوّجها عليه ملكة، لتصبح أول سيدة للقمر.

قلت وأنا أتأوه:

- نورا عارفة أنا نفسي في إيه؟

قاطعتني وهي تبتسم في خبث:

- مروان؟ إنت عايز توصل لإيه؟

تلك الغبية! إنها إلى الآن لا تعرف إلام أرمي! لا.. إنها تعرف ولكنها تتصنع الجهل، إن عينيها مليئتان برغبة جامحة، ولكن للنساء إستراتيجية معروفة، عبّر عنها عبد الفتاح القصري في أحد أفلامه بقوله "يتمنعن وهن العايزات!" هاجمت بلا روية.. "نورا استسلمي أنت محاصرة تمامًا" قالت وهي تحاول الانفلات من بين ذراعي" يعني حتى مفيش منفذ؟"

هززت رأسي بالنفي، وكم تعالت ضحكاتي أمام محاولاتها اليائسة، أسندت رأسها إلى الحائط فأمسكت بكلتا يديها، ووضعت شفتيّ على شفتيها، بمجرد أن شعرت بدفء شفتيها

للمرة الأولى، أصابني دُوار وكدت أضيعها من بين ذراعي، ولكنني تمالكت نفسي على الفور، وأغرقت وجهها بقبلاتي، قاومت قليلاً في البداية، ثم سرعان ما تجاوبت معي، ولأول مرة أشعر أنني أحلّق حول القمر، شعرت بخفة غريبة وإحساس رائع،أحسست أنني في حديقة مليئة بكل أنواع الورود والثمار، وتمتزج كل هذه الروائح لتصل لأنفي في صورة عطر ملائكي رائع، فشلت أشهر محلات العطور في تصنيع عطر يضاهيه!

في الوقت غير المناسب تمامًا، رنّ الموبايل، وفي حركة لا إرادية ظللت أندم عليها لعدة سنوات بعدها، مددت يدي لأرد.. لأجد غسان ومعه كمران، كنت في شبه غيبوبة، فطلب مني كمران أن أفيق وأغسل وجهي لأذهب إلى منزل غسان على الفور، كدت أجن عندما دخلت نورا غرفتها وأغلقت الباب.

في خلال نصف ساعة ذهبت إليهم، فتحت لي ريمه الباب، وقابلني الجميع مقابلة غير عادية، ولعدة دقائق كان الوجوم مسيطرًا على الجميع، انقبض قلبي عندما أحضرت ريمه كوبا من الليمون المثلج وأعطته لي، وسألت عن سبب هذا الوجوم، فقال غسان في همس:

– اليوم اتصل في شخص وخبرني إنه قدر يتعرف على نورا.

تهللت أساريري وهتفت في سعادة:

– بجد؟

قال غسان في مرارة:

- هالشب بيظهر إنه جوزها لا نورا.

سقطت السماء على رأسي، وشعرت بدموع غزيرة تتجمع في عيني، لكي تعبر عن أكثر لحظات حياتي إذلالاً.

خذلتني الكلمات، وتجمدت شفتاي اللتان ما زالتا تحملان توقيع نورا عليهما، ونظرت إلى الأرض، فشعرت بها تهتز، فوضعت يدي على عيني، لكي لا يرى أحد دموعي التي انهمرت لأول مرة أمام غسان.

لم يستطع أحد مواساتي، بماذا سأصبر نفسي؟ بقولهم إنها ربما تكون دعابة من أحدهم يريد فيها أن يتسلى بنا؟ لقد أخبر الشاب الذي حادث غسان باسمه وبياناته وأرسل له بطاقة هويته، وجواز سفر نورا القديم، على الفاكس!

حاولوا تهدئتي، إلا أنني لم أكن في حالة تسمح لي بالهدوء، شعرت بقلبي ينقبض ولا ينبسط ووجدت أصواتهم تتخافت في أذني إلى أن صمتت تمامًا.

أفقت على صوت ريمه وهي تحادث كمران، بينما يضع غسان يده الباردة على وجهي، حاولت النطق، إلا أن صوتي خذلني هو الآخر، فطلبت من كمران ورقة وقلما، كتبت فيها إنني أرغب في رؤية نورا.

تمالكت نفسي وغادرتهم في وسط ذهول غسان وكمران وريمه، فقد كنت ما أزال أعاني من الدوار نتيجة الإغماء.

عدت إلى البيت فوجدت نورا تلعب مع مارو، تذكرت الحالة التي سيؤول إليها مارو عندما تتركه نورا، وتعود إلى أحضان زوجها... زوجها؟ يا له من لفظ يذبحني!

طلبت محادثتها على انفراد، فأجابتني، وما إن دخلت حتى بادرتها سائلاً:

- نورا..إنتي بتحبيني؟

ابتسمت وقالت:

- سؤال إنت تعرف إجابته أكتر مني أنا شخصيًا.

- بتحبيني يا نورا؟

شعرت بحالة الرعب بداخلي، فاقتربت وأمسكت يدي في حنان وقالت:

- طبعًا يا مروان، طبعًا يا حبيبي، إنت عندك شك في كده؟

نظرت إليها وثبت عينيّ على عينيها، ولكن ليس لأستمتع بجمالهما هذه المرة، ولكن لأودعهما، في الماضي كانت كل همومي تزول بمجرد أن تقع عيناي عليهما،أما الآن فقد أصبحتا مصدر عذابي!!!

ساد الصمت وهي تحاول أن تتبيّن سر وجعي، وأشفقت عليها من الصدمة، إنها تحبني، تذوب في غرامي، لقد شعرت بذلك في اللحظات التي تواصلت فيها معي، وها أنا أضيع من بين ذراعيها، ليظهر شخص آخر ويحل محلي، شخص له كل

الحق في ذلك، اغتصبت أنا حقه في كونه بعيدا عن زوجته التي يعشقها.

أتى كمران ليجدنا صامتين، كأن على رؤوسنا الطير، وفهم على الفور أنني جبنت عن إخبارها.

أخبرها كمران أن هناك شخصت ما قد اتصل بالدكتور غسان، وأخبره أنه تعرّف عليك من خلال الإعلانات، وأنه يعرفك تمام المعرفة، وأن اسمك الحقيقي هو ناريمان أدهم.

لم تهتم باسمها، وسألت عن مدى درجة قرابته لها، هل هو أخوها؟ فنفى كمران وأخبرها أنه يدعي أنها زوجته، وأنه يمتلك عقد الزواج، وصور الزفاف، وجواز سفرها، وأخبرها أنه سيكون غدًا بباريس، وسيلتقي بها في الثامنة مساء، وأنها يجب أن تستعد لملاقاته.

كانت الصدمة أكبر من أن تحتملها نورا، فقط تساءلت: هل هو زوجها؟ إنها لا تشعر أنها متزوجة، لا تذكر أن هناك شخصا ما قد ملأ فراغ عواطفها في الماضي، إنها لا تشعر بسواي، تبا إنها فاقدة الذاكرة!

أخذني اليأس وأخذت ألوم نفسي على حبها، ولكنني تذكرت أنني أحببتها رغمًا عني، إنني لم أخطط لحبها أبدًا، لقد كذبت، إنني مذ وقعت عيناي عليها شعرت بأنها نصفي الثاني، إن إحساسي أبدًا لم يكذب عليّ من قبل، فلم كذب هذه المرة؟!

كانت الدموع تنهمر من عينيها كشلال، وهي تجلس أمامي وقد وضعت يديها على وجهها وأخفى شعرها الطويل المشهد بكامله عني، منذ دقائق كانت بين أحضاني، وكدت أمتلكها لولا هذا الهاتف اللعين، والآن ها هي تنفلت من بين أصابعي كالمياه، ولا أستطيع منعها، ولا تملك هي ذاتها الرفض، فهو زوجها ومالك ناصيتها.

تركت نورا المكان وأخذت مارو ودخلت إلى غرفتها بدون كلمة واحدة، وفي صباح اليوم التالي، دخلت إليها لأخبرها أن زوجها يرغب في ملاقاتها في تمام الساعة الثامنة مساءً عند غسان، وعليها أن تكون جاهزة وفي حالة جيدة لاستقباله، فلابد أنه متشوّق إليها بعد ثلاث سنوات من الفراق.

"ثلاث سنوات"؟ إنها أول مرة أحسب كم عاشت نورا معنا، إنها فترة طويلة جدًا، إنها أكثر من ألف ليلة بكثير، لقد أضعت ثلاث سنوات من زهرة شبابي أحبها وأستميلها، وها هو ذا آت ليخطفها مني.. لم لا أقتله؟ أليس غريمي في حبها؟ أليس شريكي فيها؟

إنني لا أمتلك سلاحًا حتى، لقد جفّ حلق كمران في الماضي وهو يخبرني بضرورة حملي لسلاح، أدافع به عن نفسي، ولكنني كنت أرفض دائمًا يا ليتني وافقت!

انخلع قلبي، وشعرت بالغيرة تُعمي ناظري، وأنا جالس مع كمران أنتظرها وهي تتهيأ للقاء زوجها المزعوم، كل لحظة تمرّ

كنت أتصورها تبدل ملابسها المحتشمة لترتدي ثيابا مغرية، تضع الفونديشن والبودرة على وجهها، تكحّل عينيها، تصبغ شفتيها بلون مثير، ثم تضع عطرًا ناعمًا أخّاذًا ليثير حبها بداخله مرة ثانية بعد كل تلك السنوات، ذلك الوغد الأحمق.. سأقتله!

فاجأتني عندما خرجت من غرفتها ترتدي ثوبًا أسود محتشمًا، وتضع نظارة سوداء كبيرة على عينيها لتخفي دموعها، ولملمت شعرها الثائر كمن ستدخل المطبخ لإعداد العشاء، فأشفقت عليها من هذه الحالة المزرية التي بدت عليها.

صممت على توصيلهما بسيارتي، على الرغم من رفض كمران، فهو يعلم أن وجود اسمي في مثل هذه القصة، فضيحة مجلجلة، وخصوصًا أن زوج نورا محامي مشاغب.

أوصلتهما إلى غسان، وجلست في السيارة لأرى ذلك الوغد الذي يرغب في سرقتها مني، ولم يطل الوقت.. ورأيته، شاب في أواخر الثلاثينيات، وسيم إلى حد ما، يبدو عليه الثراء، ثارت الدماء الحارة في رأسي عندما تخيلت مشهد لقائهما، من المؤكد أنه سيمسك بيديها وسيحتضنها في شوق، وستغمض عينيها وهي تضع رأسها على صدره، وستسترد ذاكرتها وتنساني أنا...... أنا من أحببتها وتألمت وهي بجانبي حرمانًا منها.......إنني أتعس كائن على وجه الأرض هذه الليلة.

لم أتحمل وجودي، فأخذت السيارة وتجوّلت بكل شوارع باريس، مدينة النور التي لم أر فيها سوى ظلام قاهر يحيط بي من كل اتجاه!!

بعد عدة ساعات، اتصل بي كمران وأخبرني أن نورا بالمستشفى، فقد أصيبت بصدمة عصبية بعد مواجهتها زوجها، الذي أنكرت أي علاقة لها به، وكذّبته، وثارت في وجهه، ثم سقطت أرضًا.

ذهبت إلى المستشفى، فأخذني غسان إلى غرفة المراقبة، لأراها نائمة تحت تأثير المخدر وهو جالس بجوارها، ويحتضن كفها بين يديه، يا له من مشهد (سوبر) رومانسي فتت كبدي، من المفترض أن أكون أنا بدلا منه، فأنا من يحبها بكل أحاسيسه، أنا من سخرت حياتي لأسعدها، أنا من أعدت لها ثقتها بنفسها.. دخل كمران ليجلس معنا، كان يعلم تمامًا ما أعانيه، وأنا أرى من أحببت في أحضان رجل آخر، الرجل الأوحد الذي له كل الحق في احتضانها، إنني أموت ببطء، أشعر بحبها وقد أصبح سُمًّا يسري في بدني،ولم تفلح كل محاولات كمران وغسان الجادة في جعلي أصبر، كنت كالعصفور الذي حاصرته النيران من كل جانب!!

كنت أريد فقط الانفراد بها، أردت فقط أن أخبرها أنني أعشق التراب الذي تطؤه بقدميها، وأنني متيّم بها، وأبدًا لن تجرؤ عيناي على محاولة نسيانها.

ظلت نورا عدة أيام تحت تأثير المهدئات والمخدر، لم يفارقها زوجها فيهم لحظة واحدة، كلما كانت تُفيق وتراه،

تصاب بنوبة هياج غريبة، إلى أن نصحه الطبيب بالابتعاد قليلاً؛ لأنها في حالة صدمة غير مبررة.

عاد هو إلى الفندق وجلست أنا بجوارها، وما إن أفاقت، حتى بادرت بتطويقي بكلتا ذراعيها، حاولت تهدئتها، إلا أنها كانت في حالة يُرثى لها، أخبرتني أنها ترتعب من مجرد وجود هذا الشخص في حياتها، وأنها دائما ما كانت ترى شبيهًا له في أسوأ كوابيسها، وأنها عندما رأته سقط قلبها من شدة الفزع، وتوسلت إلي كي أهرب بها من هنا، فهي لن تتحمل رؤيته ثانية، ولا حتى ترغب في العودة إلى أهلها.. أخبرتها أن تتعقل، فهي ستعود إلى زوجها وأهلها ووطنها، ففاجأتني برد قاتل "إنت دنيتي وأهلي ووطني يا مروان أرجوك ما تتخلاش عني أنا مليش غيرك".. كدت أموت، إن كلماتها تعبّر لي عن حب جارف، من ترفض العودة إلى زوجها وأهلها فهي بالأحرى تحبني، ولكنني في موقف اختبار، ولابد أن اختار بين قلبي ومشاعري وأخلاقياتي التي تربيت عليها، رفضت الهروب، وطلبت منها مواجهة الواقع، أنا أبدًا لن أُغضب ربي بحرمان زوج مخلص من زوجته التي انتظرها ثلاث سنوات، صحيح أنني لا أحبه فهو يذكرني بخطيب أختي هلة، ومدى عمق إحساسي بكراهيته، ولكن الشرع والقانون والعرف يصطفون جميعًا معه.

حاولت إقناعها، ولكنها تتوسل كطفل صغير مصاب بالحساسية ويرغب في قالب كبير من الشوكولاتة!

قبلت يدي والدموع تتساقط من عينيها كالمطر، وأنا في حيرة من أمري، إلى أن حسمت أمري، تبًا للأخلاقيات والمُثل التي ترغم امرأة على معاشرة رجل لا تطيقه، إنها مرتعبة كمن ستدخل الجحيم، سأساعدها، وسنبحث سويًا عن أهلها، وستترك ذلك الأحمق وتتزوجني ونعيش في سلام إلى الأبد... مليكتي هذا ما قررت "سأجعلك هربين من براثن ذلك الذئب، عند ذهابك معه إلى المطار، استأذني منه بحجة دخول التواليت، عندها ستقابلك صوفيا ومعها ملابس مختلفة وأدوات لتغيير مظهرك، سأنتظرك بسيارتي في الخارج، ونهرب من باريس إلى أبعد بقاع الأرض".

احتضنتني كطفلة فارة من كلب الجيران، وطلبت مني أن أجلب مارو لكي تراه، فهي تموت شوقًا إليه.. أتى كمران بمارو، فالتقطته لتضمه إلى صدرها في لهفة وهي تبكي، فطمأنتها أن لا داعي للبكاء بعد اليوم، طالما هي معي فلا يوجد ما تخشاه.

في اليوم التالي، أتى شكري –غريمي- ليأخذها إلى المطار، ونبه كمران نورا أن تكون متيقظة تمامًا؛ لأنني سأكون بانتظارها خارج المطار، وذهب كمران وغسان ليوصلاها ويودعاها، وحاولت نورا الاستئذان وتنفيذ الخطة المتفق عليها، كما أخبرني كمران، فقد رأى نورا تهمس لشكري، ولكنه رفض، وجذبها من ذراعها في قوة، على مرأى ومسمع من كمران وغسان.

كنت أنتظر في الخارج وأنا أتحرق شوقًا، بعد وقت طويل خرج كمران وغسان وأخبراني بما حدث، إن كل المواقف الصعبة التي مررتُ بها في حياتي، تتصاغر أمام هذا الموقف، وأنا أستمع لكمران وهو يصف نظراتها المستجدية لهم لكي ينقذوها، ويبعدوا عنها ذلك الوغد.

لم أعد إلى بيتي، أخذت السيارة وتركت باريس كلها، لا أدري إلى أين ذهبت، كنت أقود السيارة ولا أتقيد بقواعد المرور، وحتى لا أنظر أمامي لأرى الطريق، لم أكن سعيدًا ولا حزينًا، شعرت بدقات قلبي تتسارع، وليس في رأسي شيء أفكر فيه، مستريح لدرجة كبيرة ولكنها ليست راحة عادية، كل الألم الذي مررت به في الفترة السابقة تلاشى من صدري.

أوقفت السيارة على جانب الطريق وفتحت الموبايل الذي ظل يدق لعدة ساعات،لأجد كمران يسأل عن مكان تواجدي، وفجأة وجدت نفسي أبكي كطفل صغير، وأطلب من كمران أن يأتي ليأخذني، فأنا لن أستطع قيادة السيارة لمتر واحد أكثر.. كانت حالة الراحة التي شعرت بها تلك ما هي إلا الهدوء الذي يسبق العاصفة، بعد مكالمتي لأخي، شعرت بأن كل براكين العالم تثور في صدري، وضعت رأسي على عجلة القيادة وأخذت أبكي وأبكي إلى أن فقدت الوعي، لم أشعر بشيء سوى بعدها بيومين، عندما فتحت عينيّ لأجد مارو يجذبني من شعري ويقبلني، كنت قد افتقدته كثيرًا فضممته إلى صدري.

كان مارو شاحب الوجه حزينا هو الآخر لهجر نورا له، وظل عدة أيام بلا طعام منتظرًا أن تعود لكي تطعمه، ولكن كمران استطاع إقناعه بأنها ذهبت لترى والدتها، وسرعان ما سوف تأتي لكي تطعمه وتغني له أغنياته المفضلة.

خدع مارو بكلمات كمران المعسولة ووعوده الوردية، لكم تمنيت أن يعدني أحدهم أنا أيضًا أنها ستعود، لكنت صدقت على الفور رغم علمي بأنها لن تعود أبدًا، فقط كنت أريد من يعطيني أملا، ولو كاذبا، حتى أرأب صدع قلبي.

بعد يومين اتصل بي غسان وأخبرني خبرا غريبا، قال لي إن هناك شخصا ذهب إليه، وأخبره أنه يعرف نورا جيدًا، فقد كان أحد أصدقائها، وعندما أخبره غسان أن زوجها قد رافقها وعادا إلى مصر، صُعق، وفجّر مفاجأة مذهلة عندما قال إن نورا ليست متزوجة!!

قفزت من فراشي، وفي لحظات كان كمران قد رافقني، وذهبنا سويًا إلى غسان، لنحاول حل هذا اللغز.

ما إن وصلنا حتى التقينا بذلك الشاب "فادي"، ومعه زوجته "نجوى" صديقة نورا الأثيرة، وسألت الشاب الذي يماثلني في العمر تقريبًا عن تلك القصة، فأخبرني أن نورا أو "ناريمان أدهم" وهي مصممة ديكور، تزوّجت من محام شهير (شكري)، و لم تستطع التأقلم مع طباعه، فطلبت الطلاق وسط رفض أسرتها المحافظة، بعد أن هجرته وسافرت إلى قبرص، إلا

أن شقيقها أعادها لزوجها مرة ثانية، ليذيقها من العذاب ما لم تتحمله، فساعدها فادي على الهرب هذه المرة بحكم عمله كمدير لشركة سياحة كبرى، فسافرت إلى ماربيا بإسبانيا، وقد وكلت عدة محامين وطالبت بحقها في الخلع، وبالفعل نجحت في التخلص منه، ولكنه بحكم عمله كمحام، أمطرها وأسرتها بوابل من القضايا الكيدية، وحتى الآن ما تزال أسرتها تعاني من آثار ما فعلته به.

كنت أتمنى أن أفيق من ذلك الكابوس، كلما اعتقدت أنني بدأت أفيق، أشعر به يجثم على صدري أكثر، كنت حزينًا لأنني ودّعت نورا وأنا أظن أنها بصحبة زوج محب، أما الآن فأنا أعلم أنها بصحبة شخص له رغبة سادية في إيذائها.

اتصل فادي فورًا بعاصم، شقيق نورا الأكبر، وهو ضابط شرطة سابق، يمتلك شركة أمن خاصة، كان كمران يتعامل معه عند تأجير الحرس الخاص لي في أثناء الحفلات في مصر، وأخبره بأن شكري استطاع خداعنا والحصول على نورا، وأنه لا أحد يعلم مصيرها.. قرر كمران وغسان الذهاب إلى مصر بصحبة فادي، ليستفسروا عن مكان نورا، أما أنا فقد سافرت إلى أستراليا لإحياء بعض الحفلات، ولكنني كنت على اتصال بكمران كل نصف ساعة تقريبًا، حتى أطلع على كل جديد، كان قلبي يخفق بشدة وأنا أتصور نورا في أحضان ذلك الرجل وهي ليست زوجته............السافل!

كان إحساسي يذبح عندما أتذكر نظراتها الفزعة، وخوفها، ولكنني كنت متفائلاً لإمكانية استرجاعها مرة ثانية.

اتصل بي كمران وأخبرني بأنه ذهب لشقيق نورا، وأنه أخبر الشرطة بكل شيء، ولم يستغرق البحث طويلاً، فقد عثرت عليها الشرطة بشقة يمتلكها شكري في مدينة الإسكندرية.

كان مشهدًا صعبًا عندما التقت نورا بشقيقها لأول مرة، فقد كانت خائفة ومرتعبة مما حدث، واحتضنها شقيقها ليطمئنها، ولكنها أبعدته عنها واحتضنت كمران.

أخبرتني والدتها في مكالمة هاتفية معها، أنها تغيّرت كثيرًا، فهي في بيت والدتها لا تعترف بوجود أحد وتجلس وحيدة لا تتكلم، اعتقد الجميع في البداية أن ما أصابها ربما لفقدان ذاكرتها أو لما حدث مع شكري الذي أرغمها على بيع كل ما تمتلك له، ولكنني كنت الوحيد الذي أعرف، كانت تفتقدني، كانت تتعذب ولا تستطيع إخبار أحد بما تشعر به، لأنها لا تثق بوالدتها وشقيقها اللذين رفضا مساعدتها من قبل في التخلص من ذلك الكابوس المزعج شكري..

كنت أتصل بها كل مدة لأطمئن عليها، وفي إحدى المرات بكت بحرقة، وأخبرتني أنها تفتقدني لدرجة الموت، وأن وجودي في حياتها هو ما سيخفف عنها.

لم أتردد، طلبت منها أن تحدد لي موعدًا مع شقيقها، حتى أتقدم بطلب يدها رسميًا، ذعرت في البداية ولكنها طلبت فترة لتمهيد المسألة، لأنها من أسرة محافظة متشددة، وسيكون من الصعب عليهم قبول زواج ابنتهم من مطرب (الآن علمت لم كانت نورا تحتقر مهنتي في البداية).

مرت أسابيع وأسابيع وأنا أنتظرها، ولكنها لم تهاتفني، فطلبت من كمران التوسط بيني وبين شقيقها عاصم، فحدد معه موعدًا لألتقي به، وذهبت إليه بصحبة أخي، وصدم عاصم إذ لم يكن يتوقع أن أطلب منه مثل هذا الطلب، لم يفكر طويلاً وكان رده النهائي هو الرفض، قال بالحرف الواحد: "حضرتك عارف يا أستاذ مروان إن ناريمان أختي مش في حالتها الطبيعية، عشان كده ما أقدرش أسمح لها تتجوز، ممكن ترجع لها ذاكرتها في أي لحظة، ممكن تقوم من النوم تلاقي نفسها نايمة جنب واحد ما تعرفوش، أرجوك تقدّر الظروف اللي إحنا فيها، لو كانت ظروف تانية، صدقني ما كنتش هتردد لحظة واحدة، أنا عمري ما هنسى الجميل اللي عملته مع أختي، وهي غريبة ومريضة".. صدمت صدمة جعلتني لا أرى الطريق أمامي في أثناء العودة، لقد رفضني، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرفض فيها كزوج، ولكنها كانت الأقسى والأصعب!

لقد رفضت وأنا أعلم أنه هناك في مكان بعيد، يوجد قلب يتفتت لبعدي عنه، قلب ضاعت أجمل سنوات عمره بين أظافر وأنياب رجل آخر!

هاتفت نورا لأعلمها بما حدث، فأخبرتني أنها تناقشت كثيرًا مع شقيقها بخصوص تلك المسألة، إلا أنه رافض رفضا قاطعا، وفي النهاية قطع عليها كل السبل بقوله "افتحي جهاز التليفزيون، وانظري إلى الوسط الذي يعيش فيه مروان، وإن استطعت العيش في هذا الوسط فأعلميني".

إنني أنتمي إلى عالم الفن الذي أصبح مهنة من لا مهنة له، عالمي أصبح مثل سوق كبير لا تباع فيه سوى الفاكهة المعطوبة، اختلط فيه الجيد بالقبيح، لم ألُم عاصم لأنه لم يتعامل معي ولا يعرفني معرفة جيدة، ولا يدري مقدار تعلقي بشقيقته، ورغبتي القوية في إسعادها.

كنت أتصل بنورا حتى أطمئن عليها، إلى أن طلبت مني في إحدى المرات عدم الاتصال بها، حتى لا تُحرج أمام أسرتها، شعرت بها تتقطع، فقد كانت تتصنع القسوة وهي لا تعرفها، تتصنع القوة ولا يظهر من صوتها سوى الضعف!!

انقطعت علاقتي بها تمامًا، في البداية أغرقت نفسي في العمل، كنت أعمل ليل نهار بدون راحة، حتى أنام وأنا في حالة من الإجهاد، تمنعني من التفكير فيها، ولكن هيهات.

قاومت كثيرًا الضغط من حولي بعد نورا، واغتراب مارو الذي أخذه والدي بعد سفرها، ومحاولات مريبة لاغتيالي، فلقد تعرضت لأكثر من حادث كان يبدو عاديًا، ولكن تعدد الحوادث جعلني أرتاب في أن هناك جهة ما تودّ التخلص مني،

ولكنني لم أكن آبه بالموت، إنه شرف لي، ما كنت أتعذب بسببه هو نورا. إنني أكتوي بنار فراقها!

كنت أكتم ما أجد من الوجد والألم، حتى لا أبدو ضعيفًا أمام إخوتي وأصدقائي، كنت أبتسم وأغني وأمارس حياتي العادية، ولكنني لم أستطع الاقتراب من أي طعام كان، إذا تناولت طعاما ما كنت أشعر بحالة من الغثيان ولا أستريح إلا إذا أفرغت ما في جوفي تمامًا، إلى أن امتنعت عن تناول الطعام نهائيًا، كنت أعيش على الألبان والعصائر، وذهبت إلى طبيب متخصص، وبعد الفحص الدقيق، أخبرني أنني أعاني من فقدان شهية عصبي، نتيجة لظروفي النفسية السيئة، ونصحني بزيارة إخصائي علاج نفسي.

لم أهتم بنصائح الطبيب، فأنا أعلم ما هو دوائي الوحيد، كما تجاهلت نصائح مدرب الموسيقى الذي يدرّب صوتي والذي أخبرني بأن صوتي مجهد لدرجة كبيرة (كان يخشى أن يكون انهيار أدائي الصوتي، سببه تناولي للمخدرات).

كنت أعيش كالميت، كل علاقتي بالحياة هي أنفاس أحصل عليها بصعوبة، لم أدر ماذا حدث، فقد حدث كل شيء بسرعة مذهلة، كنت أغني في حفل عام، وشعرت بأن شيئًا ما يضغط على صدري بقسوة، كنت أغني وأنا أضع يدي على صدري مغمضًا عينيّ، وما إن انتهيت حتى دخلت إلى إحدى الغرف لأستريح، ولكنني لم أستطع الوصول للفراش، فارتميت

على الأرض وأنا أتوجّع، فنقلني كمران إلى المستشفى على الفور، وظللت بها عدة أسابيع في محاولة يائسة لمعرفة ماهية الشيء الذي يطبق على أنفاسي ....على صلتي الوحيدة بالحياة.

اشتد عليّ المرض، ولا شيء يخفف عني الألم الذي كان يعتصر رئتي في قسوة، كنت أبتهل إلى الله حتى أستطيع فقط محادثة والدي على الهاتف، فهو لن يتحمل فكرة فقداني أنا الآخر.

لم يمر وقت طويل حتى استيقظت على صوت والدي، وهو يحادث كمران، ويصف له كم القلق الذي شعر به عندما قرأ نبأ مرضي الشديد على صفحات إحدى الجرائد، وظل والدي بجانبي لكي يطمئن علي، ولكن للأسف لم يطمئن، بل زاد خوفه وفزعه عندما رآني وأنا أتقطع ألمًا، لم يكن في استطاعتي أن أكتم هذا الألم، فقد كان فوق كل احتمال، كنت أشعر كأن سكينًا حادة تجتهد في ذبح رئتي بلا هوادة..كم أكره الألم!!

عرض عليّ والدي العودة إلى المملكة، فأنا في شدة ولن يخفف عني سوى وجودي في الأراضي المقدسة، بالقرب من الحرم، وسعدت بهذا الاقتراح، ونزلت من الطائرة لأول مرة على كرسي متحرك، مرتديًا نظارة سوداء كبيرة، حتى لا يتطلع أحد إلى عيني الذابلتين، ولم أدر كيف التقطت لي صورة وأنا

بهذه الحالة المزرية، ونشرت في الصحف تحت عنوان إصابتي بمرض خطير منعني من الحركة!

دخلت أحد المستشفيات الفاخرة تحت رعاية أكبر أساطين الطب في العالم، وعلى الرغم من ذلك، لم أتنفس بصورة طبيعية.

مر شهر واثنان وثلاثة وأنا أتألم، وليس هناك ما يخفف ألمي سوى منوّم قوي، وأخبر الأطباء والدي بأن ما أمر به نتيجة أزمة نفسية ولا شك، ولم يجد والدي من ينير له الطريق سوى كمران، فجلس معه وبنعومة استطاع أن يأخذ منه كل المعلومات، علم والدي بقصة حبي لنورا، ورفض أهلها، فقرر القيام بزيارة خاطفة لمصر، يلتقي فيها بشقيق نورا ووالدها ليقنعهم.

ذهب والدي وعاد ومعه وعد ببحث المسألة، لم يخبرني والدي حتى لا أغضب، فقد كنت في حالة غريبة، لم أكن هادئاً كعادتي، كنت أثور لأتفه الأسباب ..عنيفًا عدوانيًا لا أتحكم بانفعالاتي، وكان الجميع يتحملني بصبر شديد.

لم أكن أعلم أن أشقائي يعتزون بي لهذه الدرجة، فقد ترك نواف عمله الذي يقدسه ليجلس بجواري، وتخلى طلال لأول مرة في تاريخه عن زجاجة العطر حتى يزورني، فقد كنت أختنق من جميع الروائح، حتى "خالد" شقيقي الأصغر ذي العامين كان يزورني بصحبة والدته اللبنانية دوما، وعندما أمرته أن

يكف عن التحرش بمارو، امتثل لأمري بدون نقاش، مما أثار دهشة والدي، فخالد ذلك الفتى الجسور -الذي سماه والدي "خالدًا" تيمناً بالقائد العربي "خالد بن الوليد"- لا يمتثل لأوامر أحد، ولا يأبه حتى بنصائح والدي التي كنا ننفذها بالحرف الواحد، أملاً في رضاه الغالي علينا، كم تغيّر الأطفال في العصر الحديث!

ظللت عدة أشهر لا أتابع الجرائد، وفي لحظة ملل طلبت من إحدى "السيسترات " أن تحضر لي عددا من الصحف والمجلات، ومرآة لأتطلع إلى وجهي الذي افتقدته، فقد طلب والدي أن تزال كل المرايا في جناحي، و لم أكن أعلم السر.

طالعت بعض الصحف لأقرأ ما يُكتب عني، وهالني ما قرأت، فكل صحيفة تفننت في معرفة المرض الذي أُصبت به، وتنبأت بمرض مختلف عن المرض الذي تكتبه الصحيفة الأخرى، للحظات صدقت أنني أصبت بكل أمراض الأرض، وما جعلني أغضب هو اتهام إحدى الصحف لي بإصابتي بفقدان المناعة المكتسبة "الإيدز"، وأرجعت السبب إلى علاقاتي الكثيرة غير المحترمة، صراحة سعدت بهذا الإطراء، فمعنى علاقاتي الكثيرة أنني رجل ذو جاذبية مفرطة، ولست خائباً أتودد لامرأة فتصدّني، ولكنني ما إن وضعت الصحيفة من يدي، حتى غضبت وثرت، فأنا لم أرتكب تلك الجرائم حتى تتهمني تلك الصحيفة الصفراء بالتلوث ومقارفة الفواحش!

نظرت إلى وجهي في المرآة، فعلمت على الفور سبب حسرة والدي عندما يتطلع إلى وجهي، فقد تغيّرت ملامحي تغيرًا كبيرًا، تألمت عندما ذكرني وجهي بملامح الموتى، فقد تعودت على ملامح شاب وسيم جذاب، ولكن الحال قد تغير كثيرا الآن!

جاءني والدي على حين غرة، فوجد الصحف من حولي، ووجدني متسمرًا أطالع وجهي في المرآة، فأخذ المرآة مني في لطف، وسألني عن حالي، فأمسكت الصحيفة وأعطيتها له ليقرأ، وما إن قرأ الخبر، حتى هاج وماج واتصل برئيس تحرير الصحيفة ووبخه على نشره لمثل هذه الأخبار المغرضة الكاذبة، وهدده وتوعده بملاحقته قضائيًا إلى أن تغلق الصحيفة.

سألت والدي عن حقيقة مرضي، فثار وهو يحاول أن يفهمني أنني لست مريضًا، وأن ما أعانيه هو بعض الآلام الهستيرية، نتيجة لصدمة نفسية تعرضت لها، وأن العلاج بيد الله سبحانه وتعالى ثم بيدي، وأنني من يرفض الشفاء ويفضل الموت،وأن الطب الذي درسته يقف عاجزًا أمام ما أفعله بنفسي..

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقول فيها والدي مثل هذا القول، ولكنها المرة الوحيدة التي تسللت فيها كلماته من أذني إلى قلبي مباشرة، نعم شعرت بكل كلمة، بكل حرف نطقه.

في اليوم التالي أتاني كمران متهللاً، حاملاً باقة كبيرة من الزهور، وفي يده بطاقة، فسألته ممن هذه الزهور، فقال إنها من عاصم شقيق نورا، لم أصدّق إلى أن قرأ لي الإهداء الرقيق الممهور بإمضاء عاصم.

وما إن أمسكت البطاقة بيدي، حتى شعرت بالحياة تدب بداخلي من جديد، فقد كان عاصم يعتمر بصحبة والدته، وأتى لكي يطمئن عليّ هو ووالدته، فهو لم ينس ما فعلته لنورا وهي مريضة من اهتمام ورعاية.

لم يكن مسموحا بالزيارة، ولكن هؤلاء أهل نورا!

رحب بهم والدي ترحيبًا حارًا، ولم أصدق نفسي كأنني أحلم، ولأول مرة -منذ شهور- تخلّصت من قناع الأكسجين، لأستطيع التحدث إليهم بطريقة طبيعية، وجلست معي والدة نورا وحيدة، وأخبرتني أنها تتمنى أن تتزوج ابنتها ممن تحب، ولكن هناك سببا ما يجعلها ترفض الزواج تمامًا ..

سألتها هل السبب هو عملي بالفن؟ أجابت بالنفي، وقالت إن هذه أسباب ظاهرية، هناك سبب خفي جعلها ترفض الزواج نهائيًا، السبب هو أن نورا -التي اخترتها من بين فتيات العالم كله- لن تستطيع الإنجاب، سألت عن السبب، فأخبرتني أنها كانت حاملاً في الأشهر الأخيرة، عندما احتدم الصراع بينها وبين زوجها الذي لم يتردد في ضربها ضربًا مبرحًا، تسبب

في فقدان الجنين، وعدم قدرة نورا على الإنجاب ثانية، وكان هذا هو السبب الوحيد لهروب نورا خارج مصر.

كم هو موقف صعب، أن تحب امرأة ما، وترسم كل آمالك وأحلامك حولها، ويشعرك بُعدها عنك بآلام يعجز جسدك عن تحملها، وترفض رئتاك بسببها أن تعملا بصورة طبيعية، وتعتقد أنها الإنسانة الوحيدة التي تستطيع إسعادك، ثم تكتشف أنها تفتقد إلى أهم ما تعنيه الأنوثة، وأهم ما يسبب السعادة.

كنت مشوّشًا، و لم أستطع الرد عليها، سألت فقط عن حالة نورا بعد أن أخبروها بتلك المسألة، فأجابتني أنها حاضرة غائبة، لا تتكلم، ولا تخرج، منفصلة تمامًا عن عالمهم، وهذا ما دفع والدتها إلى أن تزورني، وتخبرني بكل شيء بصراحة، وطلبت مني ألا أفكر في الزواج منها، لأنها ترفض بشدة أن تتزوجني، وتتسبب في تعاستي، وخاصة أنها تعلم مدى عشقي للأطفال.

بعد تفكير طويل، أخبرتها أنني لا أرغب في الإنجاب، فلدي مارو الذي تربّى على يديها، واعتبرها والدته، إن الأمومة ليست حملا ووضعا فقط، إنها إحساس، ونورا أشعرتني بهذا الإحساس منذ البداية، وأنني أحبها وأجدد طلبي ليدها للمرة المائة، ولن أكف عن طلب يدها إلا إذا مت، أو تزوجت هي من سواي.

تحسّنت حالتي النفسية قليلاً، فبدأت أتحرك في غرفتي، وأتناول بعض الوجبات الخفيفة، وأستمع إلى التليفزيون، ولكن سرعان ما انتكست حالتي مرة ثانية عندما أرسلت نورا إليّ رسالة، تخبرني أنها لن تتزوجني، ولو كنت آخر رجل على وجه الأرض.

مزقت الرسالة، وجذبت الإبرة من ذراعي، فانبثقت الدماء من وريدي، واشتد عليّ المرض، وحار والدي وأشقائي فيما يفعلون، كنت أتلوى وأتلوى وحولي الأطباء، ولا يستطيع أحد مساعدتي.

اقترب مني والدي ليحتضنني، ربما يخفف عني، فصرخت قائلاً "أبي مقدر أتحمل عادني بموت".

رد والدي وقد انهمرت من عينيه دموع غالية، تنافس في غلاوتها أنفس الأحجار الكريمة "بالله عليك لا تردد هاذي السوالف، يجعلني فداك ......يا الله لا تخليني أعيش هذي اللحظة أبدًا"

أغمضت عينيّ، ورحت في عالم آخر، كنت أستمع إلى ابتهالات والدي ودعواته، ولكنني لا أستطيع الرد عليه، كنت أستمع إلى بكاء كمران وهو يمسك بيدي، ولكني لا أستطيع تحريك أصبع واحد، عقلي واع تمامًا، ولكن جسدي لا يستجيب، أبدو نائمًا ولكنني لست نائمًا، كنت أتحرك في كل مكان، وأرى والدتي ونهلة الجميلة وديما الفاتنة وإياد، عشت

معهم عدة أيام، وفي نهاية اليوم السابع طلبت مني والدتي أن أغتسل، وأعطتني ثيابًا جديدة، وأمرتني بارتدائها.

فتحت عيني لأجد زينة تغسل لي وجهي وشعري وأجزاء من جسدي بماء زمزم، وهي تتمتم ببعض سور القرآن الكريم.

عندما استيقظت، نادت نوف لوالدي، وأتى والدي بصحبة الطبيب متهللاً، فهو لم يتصور أنني سأفيق ثانية، وأمر أحد إخوتي بذبح الذبائح ابتهاجًا وافتداءً لي، وحكيت لوالدي عما رأيته، فاتسعت ابتسامته وأخبرني بأن شفائي إن شاء الله قريب.

بدأت في التحسن تدريجيًا، إلى أن تخلّيت عن المحاليل وقناع الأكسجين، وطلبت من والدي مغادرة المستشفى لأعتمر، قبل أن أعود للبيت، فالمحنة التي مررت بها جعلتني أشعر بأنني قريب جدًا، أقرب ما يكون إلى الله سبحانه وتعالى .

عندما اعتمرت، شعرت براحة وسعادة تغمرني، ودعوت الله أن يهديني، وأن ينير لي طريقي، وأن يبعدني عن الضلال، كنت أخشى أن يكون مرضي سببه غضب ربي بسبب عملي مطربا،

فعلى الرغم من عشقي للفن، فإن الهواجس والشكوك أحيانًا ما كانت تنتابني بشأنه، كنت في حالة صراع شديدة بين حبي للفن وخوفي من وجودي في وسط امتلأ بالسخافات، إنني أثق برأي والدي، طلبت مجالسته، وأخبرته بما يعتمل في

صدري، وأنني أرغب في اعتزال الفن نهائيًا، لم أتخيّل أن والدي سيعارض الفكرة، وسألني عن السبب، فأخبرته أنني لا أستطيع العمل في هذه الأجواء الصاخبة، إنني لا أفتح التليفزيون على قناة ما، إلا وأرى أغاني تحتوي على مشاهد يقشعر لها البدن، لم يعد الغناء فنًا يشترط جمال الصوت، أصبح المقياس لكي تصبح مطربًا، كمّ العبارات المخجلة التي ستتفوه بها، وكمية التنازلات والمساحات العارية التي ستجود بها الحسناوات على الشاشة، لا لم يعد هذا ملائمًا لي، لم أعد أستطيع الغناء، لن يقدر أحد ما أقدمه، لم سيتحمل الشباب آهاتي وآلامي لفراق حبيبتي التي أحبها حبًا عذريًا، بينما تغني فتاة على قناة أخرى وهي عارية تمامًا في حوض الاستحمام تستعرض مفاتنها؟

تعجب والدي، ولكنه تفهم ما أشعر به، وبالعكس لم أجده غاضبًا من تلك الموجة الشعواء التي تجعل من الفن رداءً تتدثر به، والفن منها براء.

قال لي والدي إن وطننا العربي يواجه ضغوطًا سياسية واجتماعية، كما أنه يواجه حربًا غير عادلة، ودائمًا ما تفرز الحروب مثل هذه النوعيات المتدنية من الأفكار والأغنيات ومشاهد الإستربتيز والبورنو، لكن سرعان ما تنتهي هذه الموجة، لأنه لا يصح إلا الصحيح، وإنه يجب في خضم هذه المعمعة أن أصمد، لأنه لو استسلم أمثالي فسوف يضيع الفن والرقي.

تحججت بأن الفن حرام، ففنّد رأيي على الفور، فالفن المحترم الجيد ليس حرامًا، الفن الذي يُزكي الروح الوطنية، الذي يدعم الوحدة والإخاء، الذي يَفيد من عائده أطفال فقدوا عائلهم، ليس حرامًا.

إنني أعشق الفن، ولكنني لا أستطيع إكمال الطريق، فشركة الإنتاج التي أتعامل معها ما إن مرضتُ، حتى فسخت عقدها معي، كما أنني لن أستطيع أن أغني للحب وأنا محروم، أغني للحبيبة التي تتألم لبعدي عنها، وهي من هجرتني .

استرحت عندما تحدثت إلى والدي، ولكن كمران فاجئني بمشروع تأسيس شركة إنتاج أعمال فنية راقية، درس المشروع جيدًا وعرضه عليّ، لن ننغمس في الموجة الحالية، سنقدّم الفن الهادف، سنقدم أعمالا طربية بالدرجة الأولى، وسنفتتح معهدًا لتدريس فنون الغناء، وسنجمع له الطلاب من جميع أنحاء العالم العربي، ولن نقبل سوى المتميزين، ونتعاقد معهم لإنتاج ألبومات فنية، لن نعتمد على موهوبي المدن فقط، بل سنذهب للموهوبين في القُرى في الريف، الحضر والبدو، ففي المناطق النائية كثير من المواهب الحقيقية المدفونة، التي لا تجد من يكتشفها.

وبجوار ذلك، سنفتتح قناة فضائية هادفة، لعرض إنتاجنا، وقناة أخرى لعرض أغاني عمالقة المطربين، الذين أسهموا في نهضة الغناء العربي، ليكونوا قدوة للجيل الجديد من الشباب.

كان مشروعًا متكاملاً، لا ينقصه شيء، لذا تحمّست جدًا له، وبدأت بالفعل في تأسيس الشركة، وأطلقت نداء للموهوبين للتقدم لاختبارات القبول بالمعهد، الذي وفّرنا له عمالقة صناع النجوم في العالم.

وعلى الرغم من شدة انشغالي، لم أنس عملي الآخر، بل رصدت له جانبا كبيرا من أرباح الشركة والحفلات.

ولكي أتفرغ للعمل الإداري بالشركة، أعلنت أنني سأعتزل، وأن الحفل الذي سيقام في أواخر الصيف، هو حفلي الأخير، إلا إذا حدثت المعجزة التي ستغيّر مجرى حياتي، يا الله! لكم افتقدها، افتقدت كلماتها وهمساتها، آه.

اتصلتُ بها وأخبرتها أنني أحبها، ولن أكف عن الرغبة في الزواج منها ما حييت، وأنني سأعتزل الفن لأنني حُرمت منها، فهي ملهمتي، ولن أستطيع الغناء بدون ملهمتي، بكت بكاءً مريرًا حطم قلبي، ولكنها لم تعدني بشيء.

أرسلت في طلب مارو، فهو من سيجعلها تأتيني رغمًا عنها، وعندما رأيته، لم أصدق أنني ابتعدت عنه كل هذه المدة، فأنا لم أره في هذه المدة سوى مرات قلائل، افتقدت كلمة بابا التي تخرج من بين شفتيه كأجمل قصائد الحب.

كان الحفل الأخير في القاهرة، وما أحزنني أن التذاكر نفدت بالكامل بعد يومين، لدرجة أنها بيعت في السوق السوداء بأسعار خيالية، إن البعد عن الغناء سيؤلمني، ولكنني ما

زلت أحيا في عالم الفن وأساهم في صناعة مطربين جدد، يمثلون ثورة على الوضع المتأزم، لقد أعطاني الفن الكثير والكثير، وقد آن الأوان لكي أرد له الدين.

قبل الحفل بيومين، أتتني مكالمة من مجهول، تخبرني بأن هناك مؤامرة لقتلي، لم أهتم، ولكن تسرّب الخبر إلى الصحف، لا أدري كيف، ولكنني أيضًا لم أكترث، طلب مني كمران إلغاء الحفل أو تأجيله، ولكنني رفضت، أنا لا أخاف الموت، ولن يردعني رادع، إذا قتلت فهناك آلاف الشباب سيحلون محلي، إنني أثق بالله الذي أنقذني من موت محقق.

اتصل بي كل أصدقائي ليطلبوا مني عدم الذهاب للحفل، إلا أنني رفضت، امرأة واحدة لم تتصل ولم تكترث بموتي أو حياتي، الوحيدة التي لم تسأل ولم تطلب مني -وهي ترتجف- ألا أغني في ذلك الحفل، يا لها من عنيد، تتصور أنني سأكرهها ولكن هيهات!

ليلة الحفل، بعد أن تهيأت للقاء جمهوري للمرة الأخيرة، دخل عليّ كمران، وأعطاني قميصا واقيا من الرصاص، رفضت ارتداءه فأنا أؤمن بالقدر، لن أرتدي قميصا مضادًا للرصاص، ولن أحمل سلاحا، ولن أقاوم، إن استطاع قنّاص أن يجعل رصاصة الغدر تخترق قلبي المليء بالإيمان والحب والخير، فهذا قدري، وها هو صدري مفتوح في ترحيب بتلك الرصاصة، بالرغم من علمي أن رصاصة الغدر دائمًا ما تأتي من الخلف.

شهر كمران سلاحه، وتمتم في غيظ "إن لم تكن تريد حماية نفسك، فسأحميك بآخر قطرة من دمي".

خوف كمران أصابني بالدهشة، أنا بالأصل لم آخذ هذه التهديدات مأخذ الجد، لم تحرّك فيّ ساكنًا، على الرغم من الذعر الذي أصاب الجميع، فقد تعاقد كمران مع عدة شركات للأمن الخاص، وأحاطني الحرس الخاص من كل اتجاه، ولكنني أيضًا لم أكن أشعر بهم، كنت فقط أشعر بأنفاسها حولي تلهبني، كنت أتمنى أن تحدث المعجزة وأراها أمامي، ولو أصبت بعدها بآلاف الطلقات النارية!

اعتليت خشبة المسرح، وألقيت التحية على الجمهور الكبير الذي هتف باسمي، شباب من جميع الجنسيات العربية، كنت سعيدًا عندما أمسكوا جميعًا بأيدي بعضهم بعضا ليحيوني، فهم يعلمون أنني أتمنى أن أرى هذا المشهد عندما تتعانق أيدينا جميعًا في محاولة لرأب الصدع الذي اتسع بيننا، شكرتهم في حرارة، وطلبت من كل فرد فيهم أن ينسى خلافاته مع الآخرين، طلبت منهم أن نتذكر فقط أننا أصحاب أصل واحد، ولغة واحدة، ودين واحد، سواء كنا مسلمين أو مسيحيين.

بين الوصلتين، عقدت مؤتمرًا صحفيًا، سيكون الأخير لي كمطرب، وأخذت أجيب عن أسئلة الصحفيين الذين أمطروني بها، إلى أن سألني أحدهم عن السبب الحقيقي لرغبتي في

الاعتزال، أهو مرضي وعدم قدرتي على الغناء، أم رحيل الحبيبة التي كانت تلهمني؟

كان سؤالاً صعبًا من المفترض أن أروغ منه، إلا أنني وجدت نفسي أقول وبكل صراحة، إنني جريح، ودوائي بعيد عني، رحلت ربة الإلهام التي كانت توحي لي بأرق النغمات والألحان والأغاني، رحلت من كانت تلوّن صوتي وتمنحه الشجن والسحر.

شردت قليلا، وكادت الدمعة تسقط من عيني، على الرغم من تمالكي لأعصابي، لأفيق على صوت مألوف يسأل بالفرنسية:

-وإذا عادت ملهمتك وتوسلت إليك ألا تعتزل وتترك عالم الفن وتهجرها.. هل ستستجيب؟

ركزت على صاحبة السؤال ذات الشعر الأسود والنظارة السوداء الكبيرة والشفتين المكتنزتين، إنني أعرف هاتين الشفتين... نعم أعرفهما جيداً إنهما ل-..........نورا!

رقص قلبي، ولكنني طلبت منها إعادة السؤال، فلم أسمعه جيدًا، فأعادته وهي تقترب مني في بطء، ورفعت النظارة عن عينيها، ونزلت لآخذها من يدها، وخشيت أن يفتك بي عاصم إذا قبلتها، فاكتفيت بتقبيل يديها، كدت أطير وأنا أعلن للصحفيين أن من قبّلت يدها للتو، هي ملهمتي وحبيبتي،

سألتها أن تقبل الزواج مني، ففعلت أمام الجميع، فأعلنت أنني ربما أتراجع عن قراري باعتزال الغناء، فقد عادت ملهمتي!

أخذتها معي في الوصلة الثانية لتغني معي أغنية الدويتو، وغنينا معًا لأول مرة على الهواء مباشرة، أغنيتنا المفعمة بالحب، ولا أدري ما حدث في أثناء خروجنا من المسرح، فقد انقلب كل شيء فجأة، عندما سمعت دوي رصاصات، وسقطت نورا مصابة في أثناء محاولتها افتدائي، بينما تمكّن جيش الحرس الجرار بقيادة عاصم من قتل القنّاص المحترف الذي أراد اغتيالي دون أن تتحقق أمنيته.

جُرحت جرحا بسيطا، ولكنني لم أشعر به، ما شعرت به هو صدر نورا الذي أصيب، نقلتها إلى المستشفى، ولم تكن إصابتها خطيرة، وشفيت تمامًا بعد فترة، وما إن تأكد شفاؤها حتى تزوجنا.

وأدركت تمامًا أن الزواج نعمة كنت محرومًا منها، خصوصًا أنني شاب طبيعي جدًا، إن الحياة الأسرية رائعة، كنت الأب ونورا الأم (لم أنادها قط باسمها الحقيقي) ومارو الابن، الابن الوحيد، ولكن لم يستمر الحال كثيرًا هكذا، بالنسبة لوالدي، فلم يجد بعد من تفهمه، لذا أخذ يتزوج الواحدة تلو الأخرى، أما كمران فمازال يعمل مديرًا لأعمالي، في حين مرضت نورا فجأة واعتلت صحتها، لنكتشف أنها حامل، بعد أن أكد معظم الأطباء استحالة ذلك، وأنجبت توأما أسماهما والدي مريم

وعائشة، ومارو الفارس الرومانسي لم يقلع بعد عن عادة جذب النائم من شعره (هذه المرة كان يجذب شعر عائشة الصغيرة) وما زلت أعدّه ليكون مثل والده الشهيد، أما الفصيلة فمازالت تقاوم، ودخلت مع الفصائل الأخرى في محادثات التهدئة أما أنا فمازلت أحلم بوطن واحد بلا حدود، ويا ليت حلمي يتحقق.

مروان وليد